عامان على الغربة

أحمد شامي

قد تكون الحياة وردية للجميع
و لكنها ليست كذلك للمغتربين

عامان على الغربة

(مقتبس عن قصص واقعية)

أحمد شامي

القاهرة، آذار - مارس 2019

First Edition
Cairo, March. 2019
Two years of alienation
By: **Ahmed Shami**
All Rights Reserved ©
Deposit No. : 2019/19399
ISPN : 978-977-6727-55-7
Published by: Ahmed Shami .
Proofreading: Walaa Alsayed Shammaa.

الطبعة الأولى،
القاهرة، آذار - مارس 2019 .
عامان على الغربة
المؤلف : **أحمد شامي** .
رقم الإيداع : 2019/19399
الترقيم الدولي : 978-977-6727-55-7
الناشر : أحمد شامي .
التدقيق اللغوي : ولاء السيد شماع.

جميع الحقوق محفوظة ©

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونياً أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة إلى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو اعادة النشر تعرض صاحبها للمسؤولية القانونية.

إذا عثرت على اي مشكلة أو نسخة في غير الأماكن التي ينشر فيها الكاتب ، نرجو اشعارنا، وذلك بالكتابة إلى المؤلف على العنوان التالي:

ahmadaboshami@gmail.com

رمية...

لم نختر أن نكون غرباء ولكن إخترنا العيش على ذكرى الأحباء.

إنّ أصعب ما قد تواجهه في هذه الحياة هو العيش بحياتين مختلفتين وخيارين أحلاهما مرّ ولكنك مجبر على الخيارات ما بين الحياة وما بين الواقع.

لست بكاتب ولا شاعر... ولكنّي أكتب لكلّ مغترب ولكل عاشقٍ أبعدته الظروف. أحاول في هذا الكتاب أن أنقل صوره من وجهة نظرة قد تكون ثقيلة لبعض المغتربين، وأحاول جعل هذا الكتاب إطلالة واعتراض على قضايا قد تكون مهملة لأناقشها وأنتقدها عن طريق قصة عشق في زمن الحرب والاغتراب.

قد يلامس هذا الكتاب وهذه القصة البعض وقد تكون فيها بعض الأحداث التي عايشتها، ولكن ما أنا متاكد منه هو أنني أكتب وجع جيل عايش ذنب لم يكن ذنبه.

قد يكون في قلبي بعض الأماني أن تصل هذه الكلمات لصاحبها وأن يكون وصفي له متقن. ولكن تبقى النهاية هي الحكم.

لم نختر الاغتراب ولكنّا اخترنا ما نحن به في الاغتراب إما أن نكون ملهمين وإما أن نكون سراب.

الفهرس

إهداء 6
الفصل الأول: إقرار قرار 8
الفصل الثاني: إيداع عشق 14
الفصل الثالث: قضية رأي 19
الفصل الرابع: عناقٌ للموت 29
الفصل الخامس: غربةٌ في الوطن 35
الفصل السادس: بداية البصيرة 43
الفصل السابع: قدر 51
الفصل الثامن: تجرد 58
الفصل التاسع: نهاية البداية 63

الإهداء

أمدُّ إليكِ هذا العمل الذي طالما انتظرت أن يرى النور، أنتِ التي أعطيتني هذا الشـــغف بهذا الكتاب الذي أكتبه وحيداً بدموع القلب، وتفاصيل يعرفها أصحابها جيداً، وقد ساهمت ببعض التفاصيل التي جمّلت هذا العمل إن كان جميلاً... إليكِ أمدّ كتابي الأول وأنا أقبّلُ يديكِ... إليك يا أماني أحمد عبد اللطيف قاسم، شكراً واعترافاً لك يا أمي وإلى كلّ من حفزني وســاعدني في كتابة وتصـــحيح هذا العمل منهم: المدققة ولاء السيد شماع التي تحمّست جداً لتدقيقه، والشكر للرائع الإعلامي الكبير جورج غرام الذي حفزني وأثراني بملاحظاته القيمة، وإلى أســـتاذي الأول عمار نذير العموري والإعلامي حيدر مصـــطفى والإعلامية القديرة وفاء آغا -أمي الثانية- الذين كانو دائماً محفزين وداعمين لي أثناء كتابة هذه الكلمات البســيطة، وإلى أخويّ الدكتور أيمن عبد الســـلام البلتاجي والمهندس أحمد عبد الســـلام البلتاجي، وإهداء خاص لدكاترتي وأســـتاذتي الدكتور منير عباس والأســـتاذ بســـام عرب الذين أعطوني من علمهم وشـــغفهم، وإلى أصـــدقائي وزملائي في كل أنحاء العالم ســوريين ومصـــريين، وإلى منارتي الأولى وشعلتي في حياتي الوطن الأم سورية.. والشكر لكلّ من ساعد وتعاون ودعم وقال كلمة أو عبارة سلباً أو إيجاباً فـ "عامان على الغربة" كتاب يلخّص ما عاناه كلّ شـــخص فينا على طريقته وبكلّ فخرٍ بأيادٍ سورية مئة بالمئة.

القاهرة في ربيع 2019

أحمد شامي

ماذا يكتب المدقّق في إهدائه الأول؟ ... سـؤال يبعث الحيرة في نفسـي ويربك الأفكار في عقلي. أمامي الآن ثمانية وعشـرون حرفاً لأتلاعب بها كيفما أشـاء وأرصفها علّها تولّد عبارات تلامس شغاف القلوب.

كيف لي أن أرسم ذاتي ببضعة فقرات في صفحة من كتاب؟

كيف لي أن أصور جهدي ودوافعي ومسيرتي في أسطر تخطّها أناملي؟

نحن كبشرٍ كنا -ومازلنا- دوماً بارعين في تضخيم المسائل الصغيرة واختزال المسـائل العظيمة. فمن باب الفضـيلة أتوجه بالحمد والثناء والشـكر إلى خالقي وبارئي الذي وهبني العديد من المَلَكات التي لم أكن لأنال منها مقدار شـعرة لولاه، وسـخّر لي فرصـاً عديدة لاغتنامها، وتعهّدني بعنايته ورعايته ولطفه وعطفه، وأسبغ علي بنعمه وفضله رغم تقصيري البالغ تجاهه.

ومن باب الامتنان والعرفان بالجميل أتوجه بشكرٍ خالصٍ نقيّ إلى والدَيّ اللذين منحاني أكثر مما أسـتحق بالرغم من كوني دائماً وفي كل مناسـبة أتذمر من مطالبهما ومتابعتهما وأتّكئ عليهما ولكنهما لم يقابلاني إلا بالحب والعطف والتوجيه غير مبالين بأخطائي وعثراتي، فكانا دائماً وأبداً السـند المتين في مواجهتي مصاعب الحياة وحتى أثناء لحظاتي الحرجة.

ومن باب المودة والمحبة والصـداقة أتوجّه بالشـكر الجزيل إلى إخوتي اللذين أثقلتهم بكثرة منازعاتي وأفكاري الكثيفة المشتتة ونقاشاتي الفلسفية في الحياة. وأشكر ابني الذي لطالما كان الدافع المستمر لي لأقوم بأعمالٍ لم أؤمن أبداً أن لدي القدرة على القيام بها، وإنجازاتٍ لم يخطر ببالي أن أتحمل مسـؤوليتها أو أن تكون من نصيبي على الإطلاق علّني أكون قدوة صالحة له في الحياة.

وأشـكر نفسـي التي أرهقتها حتى عافت الحياة والأرض والدنيا ومن عليها وتنفّست الصعداء، والتي لو ملكت أن تغادرني لما ترددت بتاتاً.

وأشكر جبالاً من الأشخاص اللذين كانوا سنداً لي في مراحل متقطعة من حياتي حيث دفعني كلٌّ منهم خطوةً إلى الأمام حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن...

وأشكر شباب جيلٍ على قيد الحياة ولكن لم تحالفهم الحياة بعد.

دمشق في ربيع 2019

ولاء السيد شماع

الفصل الأول

إقرار قرار

في الرابع عشر من الشهر الأول.. ماشياً في شوارع مدينة الياسمين, والنظرات على وجوه العابرين قد غادرها الفرح وتعلوها علامات الحزن واليتم والفقدان.. فقدانٌ لوطن مازالوا داخله لا يَرَوْن منه إلا الظلم والحرب التي أعلنت ظلمتها في شوارع المدينة المزدحمة لتفقد رائحة الياسمين وتنشر رائحة الدماء على أنغام موسيقى مرعبة تصف تفاصيل الحرب الدامية والقلوب القاسية بين الذين يدافعون عن أرضهم والذين يدافعون عّن معتقداتهم وحريتهم.

يرنّ هاتفٌ ملعونٌ ليقول بلهجةٍ سوريةٍ مؤصلة: "صار لازم تمشي ما عاد في مجال؟!".

سادَ الصمتُ.. وكأن الناس في الشوارع قد صمتوا, وأصوات التفجيرات أوقفت صراخها، ووسائل النقل أوقفت محركاتها.. فتأخذ نفساً عميقاً محاولاً جمع ما تبقى من رائحة الياسمين وخائفاً من عدم شمّها مرةً أخرى.

دقائقٌ تتساقط فيها صور الذكريات.. ما بين البناء الأزرق والجامعة والمؤسسة والشركة والتطوع والتدريب والأصدقاء، فتصرخ في قرارة نفسك: هل سأغير مبدئي في عدم الرحيل؟

خوفٌ شديدٌ وضرباتُ قلبٍ متسارعة جعلت الأقدام تسرعُ بشكل كبير، مسرعاً للاستفسار عن موقف التجنيد لأربع سنوات مضت، محاولاً الحصول على الإعفاء لأنك الشاب الوحيد لعائلتك لتعود بالرفض دون ذكر أية أسباب أو مبرّرات، لهفةُ خوفٍ تجعلك تُخرِج كل ما تملك في حقيبتك لتحصل على إجابة موظفٍ يشرب سجائره الرخيصة مع كأسٍ من المتة.. لتحصل على ثلاث كلماتٍ: "راجعنا بعد شهر".

تمّ اتخـاذ القرار لم يعـد في اليـد حيلـة، تحطمـت جميع الطموحـات والأحلام في تلـك اللحظـة، قرارٌ لا تملـك لـه خيـار وغير معروف النتيجة.. تائها أين ستنطلق؟

تحاول جمع ما تبقى من قواك متوجهاً إلى ســـفارة بلد والدتك لتقولها لأول مرة: "بدّي فيزا لروح بلدي التاني", فيُنظر لك بخوفٍ واضـــح بسـبب عينيك اللامعتين دمعاً والارتجاف الواضـح في كلماتك، فيقول لك: "بدنا منك هالإثباتات" فتأخذ ورقةً صـــغيرةً لم تكن تتوقع يوماً أنك ستحملها وتتحمّل ثقلها.

الطريق إلى دمشــق كان واضــحاً.. فالطريق ليس بطويل، إنه رائحةُ ياسمين, وضوءُ حنين، وليالٍ يبدو بها القمر حزين.

كيف سأعلن خروجي؟.. كيف سأتخلى عن أحلامي؟

لا تملك تلك الشـــجاعة التي تجعلك تواجه التخلي عن الوطن، فتقرّر الصمت والخروج بهدوء دون إثارة أي ضجيج، وتعلنها أمام صديقك الوحيد الذي وقف بجانبك وشـاركك في حلمك (ع.ن.ع) هذا الاسم لا يمكن أن ينسى ولن ينسى فبه جميع الآلام والطموحات والأحلام.

إقرارٌ داخليٌّ بعدم معرفة أحد، وأن يكون هذا القرار الذي ســـيغير مسـار حياتك هو قرارٌ خاص لا يمكن لأحد معرفته خوفاً من الكلمات المتلاحقة حول هذا القرار لتكمل عملك وجهدك في صمت.

تبدأ بتغيير الاتجاهات لتصنع فرقاً لدى الناس تواسي نفسك به، فتقدّم كلّ ما لديك محاولاً كسبَ قلوبٍ تواسي جُرحَك الخفيّ بكلماتٍ بسيطة.

تجمع كل ما لديك عالماً بأنك لن تكمل طريقك وستغيّر اتجاه حياتك، فتختم ما كنت تفعله وتباشر بالتصفية الغير معلومة السبب لدى الجميع.

لتسلمَ أكثر من ثلاثة مشاريع لأصحاب فكرٍ قد يكون مختلفاً تماماً، خائفاً على ما جنيته فتفقد فكرك وعملك بقلبٍ مكسور وجرحٍ مازال ينزف، ليكون به إقرارُ قرارٍ بالرحيل ليحدث ما لم تتوقعه في كل حياتك وتكون الصدفة التي تبحث عنها لتغير محاور أساسية في داخلك.

وسط دهشةٍ كانت تعلو عيون الجميع تبدأ بدربِ الانتهاء من أوساطٍ لطالما أحبّتك وأحببتها، فتبدأ برسم خيوطِ شعاع الأمل في مكانٍ مغايرٍ لما تعوّدت عليه، وتبدأ شمعةُ حياتك الصغيرة بالانطفاء بعد انتهائها في لهيب الحرب الدامية التي لطالما عوّدت نفسك على قسوتها.

فما حدث في عام النكبة (٢٠١١م) كنتَ أول من تأذى به ووقعتَ في أيادٍ سوداء أذاقتك جميع أنواع العذاب، فأبدأ بالسؤال: كيف لي أن أنسى لهيب هذه القسوة والتعايش معها بعد كل ما كان؟ ولكن ما زال القلب ينبض رغم قساوة الأحداث التي استمرت ستَّ ليالٍ مظلمة، لا تعرف من يحادثك ولم تعد تشعر بالوقت، حتى الأغلال التي في يديك لم تعد تشعر بقسوتها، لتخرج مدمراً كلياً وتعود إلى حياة لا تعرف إلا لغة الحرب, فتستمر وتجمع قواك المتبقية لتثمر وتحاول لملمة

جراحك ليتحول قلبك إلى كتلةٍ من القسـوة وعدم الرحمة ومن الممكن ألا يعرف الحب بعد هذا العام المشؤوم.

هل هي مسيرة حياة لا يمكن إكمالها أم أنه طريقٌ مشؤوم كتب لك أن تكون بطله؟ تبدأ أســئلتك للتخلص من ذكرياتٍ مؤلمةٍ لم تعد تريد العودة إليهـا لمـا تحملـه من عتبـة آلامٍ لا يمكن ترميمهـا، فتعود إلى وعيك وتنطلق لإكمال ما تبقى من مهامك الأخيرة وتكمل مواجهتك مع الآخرين لتحاول المساعدة, ولكنك لم تكن تعلم أن آخر مرة ستقدم فيها هذه المســاعدة ســتكون نقطةً تحوّل حياتك تماماً.. وتقوم بقتل ما كان محبوســاً في داخلك لســنين خائفاً عليه من قســوة وآلام الحرب بالرغم من إرهاقك من آلام الفراق والخذلان والحرمان.

إنه الخميس.. اليوم العشـرون من الشـهر الثاني للسـنة، تسـتعد لتنطلق مع أقرب شـــخص لديك لإطلاق ما كان مزعوماً العمل به، وتذهب واثقاً رافعاً جبهتك وتبدأ في كلامك وتوجيهاتك ونصـــائحك رامياً الجميع بنظرة الثقـة التي تخفي خلفهـا وحشـــاً لم يعـد يعرف معنى الخوف.

وفجأةً تصمت وتُصَمُّ آذانك عن السمع, ويرتابك رعشـة خوفٍ كبيرة أيمكن أن يكون ما أراه صحيحا!؟

إنها ياسـمينٌ دمشـقيٌّ يفوح منه عطرٌ ينثر نداه على من حوله, فتتطلع بكبرياءٍ وضـــحكتك الواثقة تجعل الجميع ســـعداء.. لتكون كتمثالٍ مقدس.

عندما كنت صـــغيراً كانت تراودني أحلامٌ كثيرة عنها, وكنت أراها محض خيـال لا يمكن تركيبـه في واقعٍ قـاتـلٍ يـذبح الأفكـار ويقتـل القلوب، إنهـا هي بـذات الشـــعر الأســـود اللامع.. بـذات العينين

الواســـعتين، في أدنـاهـا أحمرُ شـــفـاهٍ مرصّـــعٍ بحبـاتٍ من اللؤلؤ المرصـــوص -حـاول العودة إلى واقعـك, أوقف ضـــربـات القلـب المتسارعة- هناك من ينادي: "عليك العودة.. عليك الاستيقاظ من هذا الخوف.. من هذه اللحظة، اخرج عن صـــمتك فالجميع قد لاحظ أنك تنظر لها بشدة، حاول إقناع نفسك بأن ما تراه محض وهمٍ لا أكثر.

تستعيد جزءاً من وعيك وتستجمع ما بقي من عقلك لتنظر في عينين لم تكن تراهما إلا في أحلامك الوردية لتقولها بصـــوتٍ عالٍ: "بعتذر أنا خلّصت", ثم يقوم صديقك بإكمال ما بدأته أنت.

تجلس منزوياً مصـــدوماً إذا ما كنت في واقعٍ أم حلم؟ وتحاول تجميع أفكارك المبعثرة لتسـألها بصـوتٍ ملهوف: "ما اسـمك؟"، ليكون هذا الاسم هو ما بقي لك.

عليك المتابعة والاســتمرار فهنالك الكثير من المهام التي لم تنتهِ بعد، عليك الإنجاز بســـرعة فقد تبقى يومان لإقلاع الطائرة، عليك توديع كل ما بقي منك, وكل ما كان عليك, توديع الشوارع ورائحة الياسمين وأصـوات الأصـدقاء ولمسـات الكتب وأماكن الإبداع المكنون، عليك أن تكون مستعداً للرحيل فلم يبقَ إلا القليل.

الفصل الثاني
إيداع عشق

بقي من الوقت ليلتان.. ولم تكن يوماً تحســـب لهذا اللقاء الذي جاء كعقـابٍ على قرارٍ لم تكن أنـت فيـه إلا الطرف المنفـذ، تنفـذ قرار الحرب التي لم تكن يوماً إلا كعقابٍ لك، حالك كحال أي سوريٍّ يعيش في أرض الكنـانـة، تتنفّس هواء البـارود وتـذرف الـدموع على من استشـهد, وتدعو الله أن يكون من استشـهد بعيداً عنك لكي لا يوجعك فراقه, ولكن هناك صـلة كبيرة بينك وبينهم لأنكم تحملون نفس الدماء الســـوريـة.. نفس العـادات المحليـة, فتقطر عينـاك دمعـاً عليهم دون دراية.

ليلتان ويتوجب عليك الرحيل, لكن ذلك الشوق.. وذلك العشق المدفون يـدفعـك إلى جنونٍ عظيمٍ, يجعلـك تفكر في عـدم الرحيـل.. يجعلـك تتراجع عن جميع صـــفقات البيع التي لم تؤتِ أي مردود، ولكن ذلك الجنون ســـيودي بك في مكـان الطيف المجهول, وهل هنـاك طيفٌ مجهولٌ أكثر مما أنت مقدمٌ عليه؟

لديك آخر لقاءٍ في البناء الأزرق مع معاونِ وزيرٍ ورؤسـاءَ منظمات, فتقرر أن تثقـل العيـار أكثر من المعتـاد وتكون المرّة الأخيرة لـك.. بمثابة طلقة انتقامٍ لما أنت فيه الآن، نعم تقولها عبر الهواء مباشرة مع محاولة من الصـديقة (ص.ا.ا) لتلطيف الأجواء المشـحونة؛ فتصـرخ قائلا: "أين أنتم من شباب وطنٍ يقتل نفسه؟".

صـرخاتٌ داخليةٌ وأوقاتٌ عصـيبةٌ قررت أن تكون فيها وحيداً ليدفعك جنونك للبحث عن طرفِ خيطٍ يصـلك بتلك اللحظة المجنونة, وتشـبع فيها غرور قلبك الذي عشـــق لأول مرةٍ، فتبادر بالســـؤال والأخذ بأطراف الحديث لتنهي خجلاً بينك وبين الياسـمين الدمشـقي وتقولها بعد سـاعتين متداركاً الوقت الذي لم يبقَ منه شـيء، فتعترف بعشـقك المجنون, وهنا يسـود الصـمت وتقف حائراً: "هل أخطأت؟ هل أنت مجنون لتصرح بعشقٍ لن يكتمل سوى لليلةٍ واحدة؟".

لينتهي صمتك وقلقك وقلة حيلتك بكلامٍ مجنون: "نعم يا عزيزي.. أنا كذلك لم أكن للعشق يوماً, ولكن عينيك كانت لي منبراً عبر شاشات البناء الأزرق, ولم أتوقع لقياك يوماً!

إنه العشق الأزرق النقي الذي لم يكن مخططاً له, إنه صفاء قلوبٍ لم تعرف الخذلان يوماً.. لتكون أمام قرارٍ آخر لم يكن لك فيه خيار.

هل الحياة اختيار أم إلزام؟ لا أجد الإجابة، فهناك الكثير من الظروف التي لا نملك لها قراراً و لا خياراً، فالحب مثلاً لا يمكن أن تتحكم به، فقد يأتي في أي زمان وأي مكان.. ولا تملك حتى اختيار الشخص الذي ستحبه, وعندما تحبّ تفعل كل شيء.

بقي ليلة واحدة تحت أنقاض الحرب.. تقرّر قضاءها مع عشقٍ مرَّ عليه يومٌ واحدٌ فقط لكي تبقى معه متناسياً آثار الحرب والشقاء القادم، وتحاول إسعاد نفسك بقربه، تطول الأحاديث أكثر فأكثر وتتعلق أنت أكثر، تعتليك شهوة العشق والجمال لتكون كالتائه ما بينك وبين وطنك.

إنها الآن الخامسة صباحاً عليك تحضيرات كثيرة، فلم يبقَ إلا ساعات قليلة على إقلاع الطائرة التي ستقلك إلى طريق المجهول.

يناديك صوت ياسمين دمشق ليقول لك: "بلا ما تسافر خليك هون.. الشام بدها ياك", لتفهم حياء كلماتها وتنظر إلى شروق الشمس الأحمر وكأن بها ألمٌ تكرّر ما قالته ياسَمينتها، فيا تُرى أيهما أصدق في قوله: هل الياسمين أم دمشق الأم التي رعتك؟ أعقد ربطة عنقي وأحزم حقيبة سفري فأسمع صوت الرحيل يطرق عتبة بابي, إنها

لحظة الفراق.. تودّع ما بقي منك وتنطلق لترى لآخر مرّة شـــوارع دمشق, فتنزف عيونك دماً لا دمعاً وتكتب في هاتفك الصـغير رسـالة إلى ياسمين دمشق مواسياً نفسك: "ألا إنّ اللقاء قريب".

تودّع قلبك وعشـــقك وياســـمينك في بنك دمشـــق ســـائلاً إياه حفظه وصـــونه، وفي طريقك إلى مطارِ دمشـــق توقفك الحواجز فتُخرِج بطـاقتك.. فينظرون إليك بـاحترامٍ مبـالغٍ فيـه بســـبب طبيعـة عملك وتُســـأل: "لوين رايح أســـتاذ"، فتنحســـر الإجابة داخل قلبك ولا تقدر على نطقها، إنها أصـــعب من تلقي رصـــاصـــة في الصـــدر، فتخجل فتقول: "مؤتمر بمصـــــر", فتتلقى تلك الإجابة التي لم تتوقعها: "إي أستاذ شفتك مبارح وأنت عم تحكي عالتلفزيون.. الله محيي أصلك".

تدمع عيناك أكثر فتلك النجوم على كتفيه كنجوم العلم الدمشـــقي التي تنطق بالحب لسـورية فتبتسـم عند نطقه: "لا تطول الغيبة"، ثم تدخل باب المطار وأنت تنظر خلفك بخوف.. أيمكن ألا أعود يا مهجتي وقد وجدت فيكِ عشـــقي وياســـميني؟ لا أعلم ما تخبئه الأيام لنا ولكن ما أعلمه جيداً أنني كحال كلّ سوريٍّ مهاجرٍ أشعر بالندم.

لا يمكن للقلوب ألا تلتقي ولكنّ هذا اللقاء كان صـــعباً جداً لا يمكن تحمله. تنتظر دخول الطائرة ممسكاً هاتفك الصـغير تحادث من كانت مهجتك وكانت تخفّفُ عنك آثام ذنبك في الســـفر.. تتبادل الكلام في حياء لترسل لها صـورة لآخر ما بقي منك في دمشق الهوى, فتجيب: "وشاء الهوى".

تغلقُ هاتفك وتضـــع قلبك في ذلك الكرســـي الرمادي الرابع ووجهك يعتليه الشحوب، ناسياً ما قد يأتيك وباكياً على ما فاتك، نعم إنه الوداع يا سـيدي. تدفع ما تبقى معك من عملةٍ سـوريةٍ لذلك العامل الذي لمّح

إلى الرّشـــوة.. وبذلك تتخلص من آخر ليرةٍ ســـوريةٍ وتعطيه تلك الرشوة مبتسماً وفي قلبك حسرةٌ على الوداع.

تنطلق الطـائرة لتشـــعر بقلبك يهبط من مكـانـه، فيبـدو عليك القلق والخوف ثم تعود إلى وعيك على صـوت المضـيفة التي تسـألك عن وضـــعك ثم تعطيك إرشـــادات الســـلامة, فتســـألها عن إمكانية إيقاف الطائرة للعودة.. لتعتذر وتنطلق مبتسمة.

ترى دمشـق من الأعلى, نعم إنها سـاحة الأمويين.. وذلك هو السـيف الدمشـــقي تراه يبتعد رامياً إياك بنظرة العتب, وأنت تســـتودعه الله تعالى وتســـأله حفظ ما بقي منك عنده، وتســـأله إبقاء وديعتك بخير لتكون وديعة عشقٍ لسورية وياسمينتها.

سـاعتان وتبدأ رحلةُ الغربةِ الطويلةِ.. والعذابُ والشـوقُ والفراقُ عن العشق, والعيشُ في نطاقِ الألم العصيب، ساعتان تفصلك عن عاداتٍ جديدةٍ وآلامٍ جديدة، سـاعتان وتبدأ العيش في الندم والخذلان، سـاعتان وتبدأ العيش في صـــراخ الروح لا الجســـد، وتبدأ رحلة غربتك بتلك الجملة الراقية: {ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِيْن}.

الفصل الثالث

قضية رأي

القضـــية، مـاذا تعني هذه الكلمـة؟ وكيف هو عمقهـا الجغرافي في حياتنا؟ ومـا هو أثرها التـاريخي على حياتنـا؟ فكرت كثيراً في مفهوم القضـية، لكنني لم أجد سـوى أنها محضُ إرادةٍ تجعلك تحاول جاهداً لإثبـات نظريـةٍ تؤمن بهـا.. أو قد تكون ابتدعتَهـا من محض ذاكرتك الواســعة أو مخيلتك العميقة أو خبرتك المتفاوتة، فأنت مثلاً تؤمن بقضـية وطنٍ فتسـعى جاهداً لإثبات هذه القضـية، و تجعل ما خلافك هو محض مؤامرة لإفشـــال نظريتك المحدودة من طرف واحد، قد يكون لك الحق الكامل بأن تؤمن بما تريد.. ولكن ليس لك الحق بأن تجعل الناس تؤمن بما تؤمن به غصـــبا، محاولاً جعل هذه النظرية عامة ومفعمة برأي الناس والأشـــراف، ولكن كيف لك ذلك وأنت مجرّدُ إنسانٍ عاديٍّ لا تملك القوة حتى لإثبات حقك في الحب والوطن والحياة.

الحقيقيةُ إنّ قضـيتك ليسـت قضـية رأي عام، إنما هي قضـيتك فقط، عليك أن تؤمن بذلك أولاً وأن تؤمن بـأن هذه القضـــية مهما علا شأنها ستبقى قضيتك وحدك.

إنه اليوم الرابع والعشـرون من الشـهر الثاني، وها هي الطائرة تهبط مخففةً من سرعتها.. ترى ثلاثة جبالٍ شـاهقةٍ تمسك ببعضـها وتحمي صغارها، وها هو الحارس جالساً على عتبتها ينظر بكل الطرق التي تريد أن ترى فيها نظراته، إنه الوقت المحتوم.. تحطّ قدماك خارج الطائرة مســتغرباً من هذا الطقس الحار في هذا الوقت من الســنة، وتنصـــتُ بإمعانٍ إلى تلك اللكنة التي لم تكن غريبة عن آذانك أبدا، وتبدأ رحلـة البحث عن حياةٍ جديدةٍ مليئـةٍ بـالهجر والفراق والحب الممنوع والغربة.

تدخل واثقاً ممـا أنت فيه، محـاولاً تجـاوز كل تلك الآلام البائســـة والأحلام التي باتت بعيدة مسافات كبيرة، تنتظر دخول عالم تجهل ما

يحمله لك، وتنطقها مرتبكاً: "إنها بلدي.. وأتيت إلى بلدي الثاني" ليبدأ برنامج التحقيقات والإجراءات الروتينية، تنتظر على عتبة القاعة البيضاء الكبيرة لأكثر من ساعتين.. محادثاً أخاك الذي لوّعَهُ الفراق البعيد وتلتقي به دون أن تعرف الشكل أو حتى الزمن إلى أن يصدر حكم الإفراج، وتدخل بقدمك اليمنى سجن الغربة التي طرقت بابك على حين غرّة، كحالِ أي مغترب قرّر الهجرة ولا تبدو عليه علامات الرضى.

و كان لقاء الاغتراب والصدمة لكل الأصدقاء بذهابك دون إعلامهم، والتخلي عما بقي من روحك المحطمة في صندوق الذكريات الأسود، لتبدأ كما تدعي حياةً خاليةً من أي ضغوطات، والانطلاق في آمال جديدةٍ ومشاريع جديدة، ولكن هذه المرة تحمل خبرة بسيطة تمكنك من تتدارك كل أخطاء ماضيك النقي, و تبدأ رحلةً يشوبها كل ما يمكن أن يكون سبباً في فساد حياتك الرقيقة المفعمة بالأمل والسعي والنجاح والشغف.

الحب، تلك الكلمة التي لطالما سحرتنا بلعنتها وسعادتها وجنونها.. تلك الكلمة التي دمّرت حياة الكثيرين ولربما كانت سبباً في نجاح الكثيرين أيضا، كنت أتساءل كثيراً في تلك الأعوام السابقة: كيف هو الحب؟ وما هو إحساسه؟ وما هو أسلوبه؟ وما هو كيانه؟ هل يكفيك النظر في تلك العينين الدافئتين لتكون قد حصلت عليه؟ أعتقد أني لم أجد الإجابة بعد. ولكن ما لم أفهمه جيداً: لماذا يأتي هذا الحب بالكثير من العوائق التي تجعلنا نعاني كل ذلك الألم؟ وكيف سمحَ لنفسه بأن يتخطى كل الخطوط الحمر؟ فلم يعد يفرّقُ في عمر أو وقت أو وطن أو دين.

ما سرّ ذلك الارتباط الكبير بينه وبين الأخطاء التي لم نكن يوما سبباً فيها، إنه سرٌّ غريبٌ جداً لا يمكن الإجابة عنه حتى الآن، فلقد خرق

العادات التي تحكمنا دون علمنا, وخرق الدين الذي نؤمن به أياً كان هو، السؤال الحقيقي هنا: ما المشكلة في أن نكون أحباباً من أديانٍ مختلفةٍ؟ ونختم ذلك الحب بزواج يحكمه القلب الذي لا يمكن أن يكون ظالماً أو خائناً؟

على ما يبدو أنني أرى للمرة الأولى مشكلة لا يوجد لها حلٌ مزدوج، لأن الحب لم يكن يوماً يحكمنا.. إنما هي تلك العادات والتقاليد والأعراف الدينية التي وضعت لنا منذ آلاف السنين, ولم يكن لنا خيار أو رأي فيها على الإطلاق, بل نمشي عليها كالأنعام والغزلان التي تنتظر ذئابها.

جلّ ما يفعله الحب هو الإيقاع بنا في مصيدة لا مهرب منها ليوقعنا في خلاف كبير مع العقل والروح والعادات والتقاليد والأنظمة المعيشية, محاولين حلّ أغلالها عنّا ولكن مَن ذلك الذي سيَحِلّ تلك الأغلال أولاً؟ ومَن ذلك الذي لا يستطيع التخلي عنها بل ويختار التمسك بها أكثر فأكثر؟ مدمراً ما بقي منه أو ما بقي من الطرف الآخر.

دقات قلبك السريعة تجعلك ترغب في الوصول باكراً إلى المنزل الذي ينتظرك في غربتك, وتمسكُ هاتفك وتحادث ياسمين دمشق لتخبرها بأن الشوق ازداد أكثر مما كنت تتوقعهُ وتسمعه في صوتها الحزين, وتستمر تلك الأحاديث لساعاتٍ عديدة تنشغل بها عن جميع من ينتظرك وينتظر لقياك.. بعد غيابٍ طال لأكثر من خمسة عشر عاماً، لتشرح تفاصيل رحلتك وتجيب عن أسئلةٍ لا تدلّ إلا على الاهتمام الذي هو أساس أي علاقة، فتسمع كلماتٍ تدلّ على شوقٍ دفينٍ خجلٍ يتوارى عن الإفصاح، لتراها فجأةً تدخل عليك من باب الغرفة الصغيرة.. وتجلس بجوارك وتنظر في عينيك المصدومتين بقدومها، وتجيبك عن أسئلتك: "إنه القدر الذي جمعني بك"، وتأخذك

في حضـنها الدافئ وتمسـح عنك تلك الدموع المليئة بالحسـرة والندم, ثم يأخذك النوم عميقاً في طيات ذلك الحنان.

تسـتيقظ صـباحاً على جرس هاتفك فتجيب مسـرعاً.. وتسـمع صـوت الياسمين ينادي عليك صباحاً برائحته العطرة, وتدرك صدمة أن ذلك الحضن كان مجرد حلم لم ترغب في الاستيقاظ منه أبداً, فتنظر خلفك وتجد آثار دموعك على تلك الوســادة الناعمة التي لم تكن مريحة لك لما تحمله من آثار الغربة.

يأخذك الكلام وتطول الأحاديث مرة أخرى, ويشـعّ نورٌ صـغيرٌ قادمٌ إليك بضــحكته البريئة, ليجلس بجانبك ويشــاركك ما بقي من حديثك على وسادتك, وتأخذه في حضنك وتنطق فيه ما بقي من حنان الوطن ولذة الشوق منذ ولادته بعيداً عنك.

يأخذك الألم من جديد.. وينفث فيك سمّاً موجعاً مليئاً بالذكريات لتتأكد بأن كل ما بقي محض سراب تحاول جاهداً عدم تذكره, ولكننا كبشر نعيش بذاكرةٍ لا يمكن أن تنســى، فتعيش حالماً بما بقي من ســرابك القديم في بلد الأحلام الكبيرة والنجاحات العظيمة.. دمشق.

تجلس في تلك الزاوية المنعزلة عن باقي العالم محاولاً اســتعادة ما بقي من ذلك الشـغف للحياة, راسماً القليل من الخطط, مواسياً نفسك على الخطط القديمة التي لم تســتطع تنفيذها، إن كتب الإدارة الكثيرة لم تكن ذا فائدة بما أنت فيه الآن، وهنا يطرق ســؤالٌ عتبةَ بابك: إذا كانت هذه الكتب لم تفدك الآن، فلمَ كنّت تقرؤها أصلاً؟

لِمَ يحجبون عيوننا وعيون أبنائنا بالكتب التي لا تمتّ للواقع بِصِلة؟

لا أدري تماماً ما المغزى من أن نقرأ ونحفظ ونحاول جاهدين السير على مناهج مدارس قديمة كانت في ظروف لا تناسب ولا تشابه ظروفنا الحالية، أعتقد أن ما يثبت نظريتي الخاصة تلك هو إغلاق عدد كبير من الشركات بعد وقت قصير بسبب سوءٍ في الإدارة.

لن أواكب المسير في ذلك القطيع، سأصنع مدرستي الخاصة التي تناسبني.. ناسياً ومتجاهلاً ذلك النظام التعليمي الذي بات قديماً ولا يستطيع أن يلفظ غبار الزمن عنه، سأواكب حياتي على مدرستي الخاصة.

تبدأ بتمزيق تلك الخطط التي لم تعد تناسب احتياجاتك ولا رغباتك الداخلية, وتبدأ بصناعة قرارٍ خاص بك كما تفعل دوماً.

إنه اليوم الثاني منذ وصولك إلى أرض الفراعنة, تبدأ العمل والانطلاق بأفكارك خارج حدودك لتعود أدراجك كثيراً، وتبدأ بتكوين بعض الصداقات وتقوّي ما تملك من معارف سابقة، وتبدأ بالالتقاء ببعض الصداقات القديمة محاولاً تجاهل اختلاف الثقافة واللكنة، والاندماج بشكلٍ جزئيٍّ محاولاً النسيان.. ولكن تلك الأسئلة التي تبدو مألوفةً لدى الكثيرين من المصريين عمّا يدور في أرض الكنانة وكيف أصبح الياسمين الأبيض يقطر ندىً أحمر، تلك الأسئلة تعيدك باستمرار إلى صوت القذائف الصارخة, وآلام الفراق، ورائحة الموت, فتجيب مبتسما: "لست سياسيّاً"، ولكن في قرارة نفسك تعلم جيداً أن هذا ليس له أي علاقة بالسياسة.

الحرب تبدؤها السياسة ويعاني منها الأشخاص العاديّون، وتبقى آثارها ملازمةً لنا في حياتنا، قد لا نستطيع النظر إليها ولكنها لا تفارقنا، إن أي سوري في الغربة يكره الحديث عنها ولا يحب أن

يُســـألَ عنهـا؛ لأنهـا تجعلـه يتـذكر أمجـاد منزلـه المهـدوم ورائحـة الأشخاص المفقودة وموسيقى الموت.

حالنا جميعاً ليس ببعيدٍ عن تلك المآسي رغم اختلاف معتقداتنا، ولكننا نعلم جيداً أننا نتشارك نفس الألم, ونفس الجرح، ونفس الضغط.

هناك الكثير من الأسئلة التي لم تخطر لك سابقاً ولا تعلم كيف ستجيب عنها، قد تكون هذه الأسئلة بسيطةً ولكن لا تعلم ما الذي يجعلك تائهاً عنها، فأنت حقاً لا تعلم هل ســتعود يوماً أم لا؟ ولا تعلم هل ســتنتهي الحرب أم لا؟ تيقّنت جيداً أنك بدأت حرباً ولكن دون رائحة البارود، قد بدأت حرباً مختلفة أدخلتك فيها تلك الأسـئلة من شـعبٍ لا يدري ما يفعل.. أو يفعلون ذلك من شــدة المحبة، لا تدري جيداً ما هي نواياهم ولكن ما تعلمه جيداً أنهم أدخلونا جميعاً في حربٍ نفسيّة.

رحلتك في البحث مازالت قائمة، فلقد اعتدنا كســـوريين على العمل، فتدخل في تجارب كثيرة وتفشل ثم تعود أدراجك خالي الوفاض متعباً من لوعة الشوق والغربة والإجابات التي تشعرك بأنك غريبٌ فعلاً.. ولم يكن يوماً هذا مكانك بعكس ما كان يقال لك.

تستمرّ رحلة البحث ومعها تبدأ في تكوين علاقاتك, فإن أساس النجاح في أي مكان هو العلاقات والمعارف ليمضـــي من الوقت شـــهران وأنت ما زلت تبحث.

لم تكن لتنســى يوماً ذلك البناء المتواجد في القاهرة, والذي اسـتمريت في التردد عليه لأكثر من أســبوع تجري فيه مقابلات عمل لتُخْتتم أخيرا بجملةٍ لا يمكن نسـيانها: "أنت مناسـبٌ للعمل, وقد تكون أعلى

من المطلوب ولكن نحتاج مصـريين للعمل ولا نريد سـوريين", قالها وهو يبتسـم ولكنه لا يعلم وقع هذه الكلمات عليّك, وكم جعلتك تشـعر بـالغبطـة والقهر.. لتبدأ بهـا رحلتك مع قهرٍ جديدٍ إنـه قهر الرجـال، جعلك ترمي سـنيناً من الخبرة جانباً وتبدأ بالبحث من جديد عن أي عمل آخر، محاولاً استعادة قوتك ولملمة ما بقي من نفسك والاندماج بأي شكلٍ كان, ومحاولاً نسيان ما كان.

يومك في الغربة ينقسـم إلى قسـمين: قسـم تعيش فيه باندماج مع المجتمع حولك، وقسم تعيش فيه وحيداً مع تلك الذكريات.

لا أعلم إن كان هناك مساوئ أم محاسن للغربة, ولكن ما أعلمه جيداً أنها تجعلك تخسـر كل شـيء, فلقد بدأ الناس في وطنك بنسـيانك, ومهاجمة ما تقوله لمجرد أنك في الخارج, وفي الغربة تبدأ الناس بمهاجمتك لمجرد شعورهم بأنك قادم لسرقة رزقهم، وما لم تستطع الحرب أخذه قد أخذته الغربة.. فقد أخذت أحلامنا، ووطننا، وآمالنا، وحياتنا، أخذت تلك الشهرة الخداعة وتلك المشاريع التي باتت تحت منصـاتٍ مختلفة وأخذت حياةً بأكملها كنت تتغذى بها، ولكن دون خوف.. مازلت قوياً فياسـمين دمشـق مازالت تهوّن عليّ ألم الغربة ووجع النفوس الخداعة التي ظهرت فجأة.

الأيام بدأت تشـبهُ بعضـها البعض إلى حدٍ كبيرٍ، فتبدؤها بصـوت الياسـمين وتحاول جاهداً البحث في أي مكان عن أي شـيء.. لتعود متعباً وتختتمه بأحاديثَ طويلةٍ تقول فيها كل ما يدور في نفسـك دون خوف، فأنت تجد فيها كل القوة والصبر, وتجد فيها ما بقي منك.

كل ما فيك ما زال ينبض بالحياة.. فما زلت تحتفظ ببعضٍ من أجزائك في دمشـق وياسـمين دمشـق، ولكن الإحسـاس الذي تشـعر به مازال

يقلقك، فلأول مرةٍ تشـــعر بالخوف، فتلك الأحاديث جعلتك تعلم أنك وياســمين دمشــق مختلفان في شــيء واحد فقط، شــيء واحد يحكم أقداركم.. إنه الشـــيء الذي يقول لك: إن الحكاية لم تنتهِ، وإن الألم الحقيقي لم يبدأ بعد، أمر واحد يجعلك تتخلى عن جميع مبادئك وكل ما تؤمن به, ولكن هل تفعل كما تفعل ياسـمين دمشـق؟ تلك الإجابات لا تجعلك تعلم إن كان كذلك أو لا, ولكن تجعلك تائهاً بما أنت فيه, وخائفاً ممّا سيأتي، فتسأل نفسك: هل سيكون مصيرك كمصير بلدك؟ فلقد تشاركتما معاً نفس الذريعة، ولكن تعود بالنظر إلى تجارب سابقه لترى أنها قد نجحت مع الكثيرين، فاختلاف الطائفة الدينية واختلاف الأديان لم يكن مشكلة بالنسبة لهم كما هو الحال عندك.

ذلك الحب يجعلك تكمل حياتك وترمي كل تلك العوائق جانباً، وتســتمر في حبك الذي انتظرته كثيراً، فتكمل دون أن تنظر لما سيحصل في الغد، فكل ما تريده الآن هو ذلك الحبيب في ثنايا حياتك ليعيد ترتيبها لك من جديد.

اختلاف الآراء لم يكن سبباً لأي مشكلة.. بل كان سبباً للتقارب وفتح أطراف أحاديث كثيرة، ولكن اختلاف الأديان كان عائقا كبيراً لياسمين دمشق، وتسأل نفسك: ما هو ذنبها؟ وما هو ذنبك؟ لم تجد أي إجابة إلا أنّ بحر الهوى قد رمى بكما من على علوٍ كبيرٍ ولا تعلم متى ستصل إلى الأرض وما الذي ينتظرك.

ما هو السرّ الذي يجعلنا على قيد الحياة؟ أعلم تماما إنها الروح, ولكن ما الذي يجعل هذه الروح تســتمر في مدنا بالطاقة؟ أعتقد إنه الأمل.. الأملُ في النجاح والأمل في الحب والأمل في الأهداف، وما أنا متأكد منه أنه لا يوجد أمل دون ألم، أيمكن أن يكون هذا الســرّ هو الألم؟ لا يوجد إجابة منطقية على ذلك الســؤال, فالألم هو ما يجعلنا نتعثر، ولكن في كثير من الأحيان قد يكون الألم هو ســبب إصــرارنا على

العيش، فنحن نتغذى منه كما يتغذى منا.. فقليل من الألم قد ينفعك في بعض الأحيان.

الفصل الرابع
عناقٌ للموت

مع التقدم في العمر ستدرك أنك غضبت وخاصمت العديد من الأشخاص لأجل أمور لا تستحق, وستزداد البصيرة ويكثر التغافل ويكثر معه الإحساس بالغربة, فالغربة لم تكن يوماً كما يعتقد الجميع.. إنها منارةٌ للخير وإنها فترةٌ وستنتهي، فطريقُ الغربة ليس له رجوع ولا باب للعودة المرجوة، ولا منارة للخير, ففي الغربة الكثير من الألم وعدم الغفران.

قد تكون مواقعُ التواصل الاجتماعي مثالاً واضحاً لكل ذلك، وقد نكون أوجدنا نوعاً جديداً من الغربة غير تلك التي كانت معروفة، إن من أهم أهداف مواقع التواصل الاجتماعي هي التقارب الثقافي ومحو الإحساس بالغربة والبعد, وقد تعتبر هذه ميزة قيّمة، ولكن في الحقيقة إنها مثالٌ واضحٌ للغربة، سابقاً كنت تعيش على أمل اللقاء بالأحباب.. واليوم بتّ تعرف رأيهم فتعلم أنك لم تعد موجوداً في حياتهم، فعودتك ستكون بمثابة غربة داخلية فُرِضت عليك لتكون غائباً متغيباً مغترباً في أرضك وبين أهلك، فالتعوّد أصعب ما يمكن لك النظر فيه في الغربة، فجميع من كان حولك اعتاد على غيابك البعيد, واكتسابك لثقافاتٍ جديدةٍ، واختلاف ثقافتهم يزيد من الفجوة فترجو العودة إلى الغربة التي لم ولن تخرج منها أبداً.

ما زال الحنين والشوق لتلك الأشجار ولتلك الضحكات يتوه في خاطرك كلّ يوم، ويرسم في وجهك ابتسامة ألم، فتندفع لتعلم ما هي آخر أخبار الحرب في بلدك المهجور فتعلم أن الحال كما كان دائماً منذ سنوات.. أيّامٌ عصيبةٌ تخفيها بعض القنوات وتعلنها بعض منها، وآلام التفجيرات تجعلك تموت خوفاً وقلقاً.. فتبدأ بالكتابة لتحاول تغيير ما تستطيع كما كنت دائماً, وتجد بعض الردود التي لم تكن يوماً في حسبانك, فكيف لك أن تنقد وتنتقد وأنت لست في بلدك حتى، وكأنما قد سحبت منك جنسيتك, وتمّ إلغاء مفهوم المواطنة لك، آخذين حقوقك متناسين أنك ابن هنانو وقاسيون والأيوبي, وأنك كسوريّ تعتبر ممثلاً لأرضك ولبلدك ولهم في أي مكان كنت، ألا يكون لديك

الحق في الكلام يولّد شـــعوراً يزيد من آلامك وجروحك.. فتزداد غربتك غربة وتزداد آلامك ألماً.

فإنك لم تنسَ يوما أصــوات القذائف الملقاة ولا أصــوات الصــواريخ التي لا تعرف مسارها، ولم يغب يوماُ شعور الأغلال في يديك فيأتيك ذلك الخبر الأسود المليء بالدم، لا تعلم كيف تبدأ ولا كيف تسأل ولا كيف تتواصل مع من بقي منك هناك، تعتريك مشاعر الخوف والألم والخذلان.. فيصــرخ داخلكَ مقطعاً ما بقي من شــرايين قلبك، خوفك عليهم واهتمامك بهم لم يكن عبثاً تجاه مَن اهتمَّ بك كثيراً وهل جزاء الاهتمام إلا الاهتمام؟

الإنترنت مقطوع والاتصـــالات معدومة ولا يوجد ســـوى صـــور الأشلاء المنشورة على شاشات التلفاز، فتذهب تلقائياُ وتنقّل عينيك بين تلك الأشلاء محاولاُ تمييز أي أحد منهم فيزداد خوفك وقلقك، تمرّ الدقائق والساعات كأنها سنين وقرون، ويبدأ عقلك يصاب بالجنون, ثم تنقطع شرايين الألم مؤقتاُ على صوت رسالةٍ كُتِب فيها كلمتان: "نحن بخير".

قد تكون هاتان الكلمتان تشعان بهجة ولكن التفجيرات المتفرقة تقلقك على الياســمين، فيمرّ يوم دون خبر.. ولا حتى فســحة أمل، تســأل وتحاول الوصل لأي خبر دون جدوى، لتبدأ الدخول في صدمةٍ من نوعٍ جديد وألمٍ غريب، أيمكن للحرب أن تبعدك نهائياً بخبرٍ فاجع؟ تواظبُ على المراســلة ومحاولة الاتصـــال حتى يرنَّ ذلك الهاتف وتسمع ذلك الصوت الواهن الخائف.. فيرتاح قلبك ويزول قلقك لتثلج قلبك بصوت الياسمين وتعود مرتاحاً غائباً بمسافة الغربة فقط من غير الموت، تحاول الوصــول إلى من بقي من أصــدقائك لتعلم أنهم بخير وأن كل شيء قد مرَّ بسلام.

ولكن هل مرَّ بسلامٍ فعلاً؟ لا أعتقد ذلك، فذلك الشعور ما زال كل يوم يأتيك على حين غفلة ومن غير إنذار مســـبق.. لتعيش في ذلك القلق والخوف المتلازم فتعلم أنك قد وجدت لوناً أحمر للغربة في زمن الحرب.

تزداد الآلام يوماً بعد يوم تحت رعايةٍ كبيرةٍ من الغربة بمشاركة غير مباركة من الحرب, فتعيش في ظلمٍ داخلي لا تعلم عنه إلا أنك بدأت تفقد مشاعرك التي قتلت بشكل كامل, قلبك ما زال يشعر بالقسوة حتى تحجّرَ تائهاً في ثنايا الحرب الكاملة.

تبدأ بتكوين فكرة، أملٌ صـــغيرٌ ما زال يعيش في داخلك من حبٍّ لم تعهده يوماً.. من شـــهوةِ اللقاء التي تقتلك كل يوم، وذكرياتك عن ذلك اليوم تدور ضمن أحاديثك المطولة مع الياسمين الدمشقي الذي لم يكن يوماً ضـــمن مخططات حياتك.. ولكن اختلاف الأديان الذي لم يكن عائقاً لك بدأ يكون عائقاً كبيراً لديك، وبدأ يقتلك قبل أن تقتله، وتبدأ المقارنة ما بينك وبين الأهل لتأخذ قرارك بأن الياســـمين لا بدّ له من إعلامهم, وخاصـةً أنهم متفهمون.. ولكنّ الردّ كان سلبياً، تلك السلبية تجعلك في دوامةٍ كبيرةٍ وقلقٍ دائمٍ وأســـئلةٍ لم تكن تخطر لك يوماً، كيف سينتهي هذا العشق الممنوع وإلى أي مدى سيستمر؟

تعلم في قرارة نفسك أنه قد حَسَم أمره, و لكنك لا تجرؤ على القول, وتحاول إقناع نفسك بأنك لن تفقد هذا الأمل الجميل الذي يحمل رائحة النقاء والياسمين الفوّاح.

أنت تعلمُ جيداً أنه يغار عليك حتى من نفســـه, ففي كلّ يومٍ يعلمك أن إحســـاس الغيرة المبطن هو أقوى شـــعور للحب غير المعلن للناس،

وتزداد أحاديثك معه ويمر الوقت سـريعاً, وتعودان لكينونة العشـق الممنوع من الدين.

إنها السـادسـةُ صـباحاً من اليوم السـادس من الشـهر السـادس.. آخر مكالمة انتهت بنومك على صـوت الياسـمين, فتذهب إلى عملك ثم تعود بعد سـاعاتٍ لتجد رسـالةً كُتِبَت بيديهِ الناعمتين ولتكون آخر كلماتٍ سُـطِرَت: "لا أسـتطيع أن أكون أنانية، لا أسـتطيع أن أجعلك تتعلق بي أكثر وأنا لست لك، انتهى.. أتمنى لك حياةً جميلةً كروحك".

إنه الموت المتقن تماماً مع رقم (6), فتلك المكالمة كانت في السادسة صـباحاً والرسـالة كانت في السـادسـة مسـاءً من اليوم السـادس من الشهر السادس، كما أن سفرك كان في السادسة صباحاً، ما سرّ ذلك الرقم العجيب الذي توقف عنده الزمن؟ ومن أين لـه كلّ تلك القوة الجبارة على إخفاء كل شيء جميل.. كل ما له علاقة بالحياة؟

كيف يجعل اختفاء كل أمل تملكه دون مبرر!! حتى دون كلمةٍ واحدةٍ أو مواجهة؟ ثم يقتلك ببطءٍ شديد، وتعلم أن هناك لوناً غريباً جداً للألم, ذلك اللون الذي لا يصـدر أي صـوت ولكنه يقطع جميع شـرايينك، فتتعلم أن من أقدار الحياة أن تعلم أن هناك أربعة أشـياء في حياتك لا يجب كسـرها: (الثقة، الوعد، الحب، القلب), ليس لأنها أسـاسـيات العيش بل لأنها حين تنكسر لا تصدر صوتاً ولكنها تُحدِث الكثير من الألم.

توقف الوقت تماماً عند ياسـمين دمشـق كما توقف الوقت عند دمشـق وعند أحلامها, فلم تعد غربتك بقصـد العمل والتطور وإنما تحوّلتْ إلى هجرة.. فلم يبقَ لك شيء تعود من أجله.. فتحاول جاهداً الوصول إلى ياسـمين دمشـق لإنقاذ ما بقي منك ولكن تعود محاولاتك بلا رد,

فتبدأ بمتابعة أخباره عن بعد, لتعلم أن هناك نوعاً من الحب غير معلن, وتحوّل موتك وألمك إلى ذكرى تعيش فيها ما بقي من عمرك وتظلّ حائراً في ذكراها، فتعلن ولادة عنقاء عانقت الموت.

الفصل الخامس

غربةٌ في الوطن

تعود إلى حياتك من جديد، وتقرّر البدء دون عنوان ودون أي هدفٍ واضـــحٍ في ثنايا الليل مع الغربة الدامية في قلبك، تختار الليلَ لأنه الوحيدُ القادرُ على أن يســمع صــرخاتك الداخلية، ويســتعدّ لك دائماً ليستمع إلى ذكرياتك الأليمة.

الليل والماضي تربطهما علاقةٌ قويّةٌ وجمّة، لكن لا تعلم حقيقةً ما سرُّ هذا الترابط والتناغم، فهو مثلاً الملجأ الوحيد للعشـــاق حيث يجدون فيه الملاذ الوحيد الذي يفرغون فيه عما يجول في خواطرهم، وكذلك هو حال المغتربين عموماً، فيكون يومك إما عبارةً عن تجوالٍ ليس له أي هدف أو سهراً دامياً في ثنايا الليل الغابر الموحش تحت رعاية الغربة.

كل ما يجول في خاطركَ هو قوّة تلك الكلمات وســـحرها البديع على إنشاء علاقةٍ عذراءَ لا يشوبها أيّ رغباتٍ، ولا يملؤها إلا صرخات حبٍ دامعة وقلوبٍ عاشقة.. عشقت بفنّ الكلمة وفنّ الحديث والصوت البديع، فتظلّ أسيراً لتلك الكلمات ويبقى الأمل أن تأتيَ لحظةٌ وتجمع بينكما في يومٍ من الأيام.

تعود بك الذاكرة قليلاً فتتذكّر أياماً قد مضت في ثنايا مكتبك، ويسوقك الحنين بلحظةٍ عارمةٍ لتلك الأماكن والأشـــخاص الذين يقطنون في زوايا شـــوارعها على رغم ما بها من ألمٍ ومعاناة، فتتذكّر أنك من البداية قد كُتِبَت عليك الغربة كما كُتِبَت الحرب على الوطن، وإنك تعلم أن أقسى وأصعبَ ألوان الغربة هي الغربة داخل الوطن.

في ذلك العام المشـــؤوم عام النكبة -أو ما يُدعى بداية الأزمة في سورية- كنت مجرّدَ شخصٍ عادي لا يهمك شيء في حياتك سوى ما كان يُمتعك في هذه الدنيا ولا تأبه لما يدور حولك.. وكأنك تعيش في

كوكبٍ آخر بعيداً عن كوكبِ الإثارة الذي حولك، فقد كنت تعيش في عالَمِ الحكايات والقصـــص، وكنت تُطلق العنان لخيالك الجم الواســع بعيداً عن كلّ أسبابِ التعاسة التي تحيط بك، وبعيداً عن تلك الروايات التي تجوبُ الشـــارع الســوري، فكان يومك كأي يوم عادي قبل ذلك العام، ولكن بعض التغيرات الطفيفة التي أُجبرتَ عليها عنوةً، فكانت تلك الأصـــوات المتألمة وتلك القنابل صـــوتها أعلى من صـــوت الموسـيقى وصـوت الحب وصـوت الخيال الذي في داخلك، تعيشـها بسيطاً جداً بكل تفاصيلها الجميلة والقبيحة.. فيأتي ذلك الوقت الذي لم يكن لك من البداية ويتمّ أخذكَ عنوةً من باب منزلكَ بأيدِ أطياف سوداء الشكل والروح وأناسٍ لم تعرف يوماً معنى الحب.

ينتابُ قلبك النقي خوفٌ شـــديدٌ.. وأنت تشـــعر بفوهة ذاك الســـلاح مزروعاً في تربة خاصرتك كالسيف.. تحمله يدٌ خائنةٌ مرتعشة قلقة، وهنا كان يجب أن تفقدَ بصـــرك بذلك الوشـــاح الداكن الذي كنت ترتديه، معلناً معه قتل كل ما كان بك من مشـاعر وأحاسـيس جميلة، وتخدش ما بك من إنســـانيةٍ بريئةٍ، وتتحوّل في تلك اللحظة إلى كائنٍ جديدٍ ومخلوقٍ لم تعهده من قبل.

الشعورُ بأنك أعمى صعبٌ قليلاً، فكلّ ما تشعر به في تلك اللحظة هو ملاذك الوحيد لمعرفة ما يدور مِن حولك، فكل ما لديك من معلوماتٍ تجعلك توقنُ أنّك بداخل صـــندوق الســـيارة -أو العربية كما يطلق عليها- من خلال دخولك العنيف لها، وحركتها تجعلك تعلم أنك تسير لمســـافاتٍ بعيدةٍ عن طريق أصـــوات الســـيارات الأخرى، ولكن في الحقيقة إنّ أكثر ما يرعب في الأمر هو عدم معرفتك بما هو قادم عليك وكيف ســـيكون؟ وما الذي ســـتعلمه و تتعلّمه من هذه التجربة وهذه الحادثة إن خرجت منها؟ تلك التجربة التي لم ترَ فيها بصـــيصَ النور حتى الآن.

ومع توالي الصفعات واللكمات والضربات يُقتل جزءٌ منك، ومع كلّ كلمة تطرقُ مسامعك يجول في خاطرك شعورٌ أسودٌ جديدٌ لم تعهده من قبل.. ولم تفكّر به في حياتك، و لم تسمح له بأن يدخل حياتك أصلاً، كما هي رغبتك في الموت في هذه اللحظة.. شعورٌ عميقٌ يتنامى مع ضرباتٍ لم تعد تشعر بها من كثرتها ومن اعتيادك عليها، واتهاماتٍ لم تكن لتوجّه إليك يوماً.

تبدأ لعبة الانتظار مع الوقت، ولكن ما هو الوقت؟ وكيف هو شكله؟ هل هو مجرّدُ أرقامٍ وضعناها لأنفسنا كي نرتّبَ عليها حياتنا فقط، ونضع بعضاً من القيود فوق تلك القيود المجتمعية التي لم يكن لنا خيار فيها!

عدم معرفتك بالوقت وبالزمن يجعلك تفكّر ملياً.. كيف ستعلم كم مرَّ عليك من الوقت حقاً؟ فالوقت كان بطيئاً لدرجة أنك تشعر أنه قد توقّف، وهو في الحقيقة توقف عند تلك اللحظة التي تغيّر فيها مجرى حياتك.

تفكّر كثيراً كم مرَّ عليك من الزمن وأنت تتعذب وتصرخ بكرامة، كرامتك التي لم يستطع أحد منهم كسرها أو حتى خدشها, فأنت لم تنكسر لهم أبداً، وفضّلتَ محاربتهم بصمتكَ وكتمان صرخاتكَ وأوجاعك.. مما يجعلهم يسيؤون لك أكثر ويزدادون في طغيانهم الأعمى، فيكون ميعاد وجبتك المتعفنة هي ساعتك وبوصلتك للوقت التي تعدّ بها الأيام لا الساعات، وتعلم من خلالها مواعيد التعذيب المفروضة فتصنع لنفسك بوصلة حياةٍ لا تعلم متى ستنتهي.

يداك المكبلتان بطريقةٍ بدائيةٍ، وعيناك المعصوبتان بطريقةٍ غير احترافية.. تجعلك تعلم أنك لا تتعامل مع جهة معلومة ومحددة وإنما

هي جهة مجهولة تماماً وغير منتظمة وغير منضبطة، وكل ما يشغل تفكيرك ويثير حيرتك هو صـــوت ذلك الرجل.. فصـــوته ليس غريباً عنك!

ليست تلك المرة الأولى التي تسمع فيها هذا الصوت.. فذلك الصوت قد اعتدت على سماع ضحكاته ولكن هذه المرة تسمعه بطريقةٍ جديدةٍ مليئةٍ بالحقد والكراهية غير مبررة وغير مفهومة.

تبدأ الأسـئلة تكثر و تدور في عقلك: ما الذي زرعته لتحصـدَ كلّ هذا الكره والحقد؟ فتأتيك تلك الإجابة الغريبة من دون أن تكلّف نفســـك عناء السؤال: "لماذا لديكم أموال ونحن لا؟".

بدأت تفهم وتشعر بكلّ ما يدور من حولك بشكلٍ جيدٍ، وبدأت الأمور تتوضّح أمامك، وأصبحت تعلم تماماً أن كل ما يدور ويحصل في هذا المكان هو من أجل المال فقط.. كما هو الحال في الوطن العربي كله, فكلّ ما حصـل ويحصـل هو من أجل المال، فيدفعك ذلك إلى التفكير بشكلٍ أكبر وأعمق، ما الذي زرعناه في هذا الوطن ليكون محصولنا مُنكّهاً برائحة البارود ومرويّاً بالدم وملوناً بالهمّ!؟

ذاكرتك لم تعد تتحمّل أكثر من ذلك أو أنك لم تعد تريدها أن تتحمل أكثر، فلم تعد تذكر سوى لقطاتٍ صـغيرةٍ تحمل في طياتها ألماً كبيراً وقساوةً لم تمحُها السنين، فلم تكن لتنسى ذلك الشخص الذي ذُبح بكل دمٍ باردٍ أمامَ ناظريك، ولم تكن لتنسى صوت تلك المرأة التي تصرخ ألماً واســتغاثةً من آثار التعذيب والاغتصـــاب والاســتباحة الكبيرة المحرمة لجسدها وعاطفتها.

كلّ ما تذكره هو تلك الوجوه التي استيقظت عليها مع أصوات الأجهزة، لتتوالى عليك الصدمات بعدها بشدةٍ كبيرةٍ حيث أنّ ذلك الصوت الذي ظننتَهُ مجهولاً كان صوت صديق طفولتك.. ورفيق دربك، فتدخل في حالةٍ من الذهول والصدمة وتكتشف أنّ ما كان داخل تلك النفوس قد تغيّر لأسوأ شكلٍ ممكنٍ من أشكال الوحشية، فلقد قطعت شوطاً طويلاً من الزمن متغيباً عمّا حولك، وتعلم أن مرحلة النقاء وصفاء الروح وحسن النيّة قد انتهت، وأنك لم تعد كما كنت سابقاً، وقد بدأت مرحلةً ترفضها.. مرحلة جديدة كلّ ما فيها هو الكذب والخداع، ويحكمها الغدر والخيانة، وكدماتٍ تعبّر عن قلة وضعف الأمانة.

لم يبقَ لك سوى تلك الذكريات البائسة التي أدخلتك في مرحلةٍ نفسيةٍ حرجة عجز الطب النفسي عن تفسيرها غير أنها صدمةٌ وحالةٌ من الاكتئاب تشوب المكان ليس لك وحدك فقط.. بل لكلّ وطنك لتكون غريباً داخل وطنك.

تستوقفك تلك الوجوه في شوارع دمشق بعد ستةِ أعوامٍ من الحرب والدمار، يا لها من وجوهٍ شاحبةٍ وحزينةٍ تعلوها نظراتُ الخوف والقلق وشعورٌ غريبٌ بالندم، إنها وجوهٌ كبيرةٌ في السّنّ لأعمارٍ صغيرةٍ وشبابٍ ضاعت زهوة ربيع أعمارهم، فيقطع تأمّلاتك في تلك الوجوه صوتٌ بريء!

صوتٌ صغيرٌ لم يعلم من العمر شيئاً، فتاةٌ صغيرةٌ يبدو عليها فقرٌ لم تعهده دمشق سابقاً، جالسةً على قطعةٍ من الورق المقوى بثيابها الممزقة كقلبها الصغير، كلّ ما جال في خاطري في تلك اللحظة أنها ستطلبُ مبلغاً من المال فهذه الحالة باتت منتشرةً بكثرة في الآونة الأخيرة مع تفشي الحرب، فقاطعت كلّ ما كان يجول بك بصوتٍ

حنونٍ وجميل يشبه أنغام فيروز في الصباح: "لا أريد مالاً ولكن على ما يبدو أنك أستاذٌ في مدرسة.. وأنا أريد منك فقط أن تساعدني!!".

يا الله!! لقد جعلتك تخجل من نفسك ومن كلّ ما كنت تفكر فيه، كيف لم تنتبه لذلك الكتاب في يدها؟ كيف لك ألا تعرف ما كان يجول في خاطرها؟ يبدو أنّ الحربَ قد جعلتك ظالماً كحالتها ولم تعد تستطيع التمييز ما بين الناس.

وافقت على الفور وبدأت تشرح لها تلك الأرقام البسيطة وهي تصغي إليك تماماً، وتحاول أن تجلس بجانبها فكانت تلك الصدمة برفضها قائلة جملتها الرقيقة والبريئة بلكنتنا المحلية: "لا توسخ بدلتك أستاذ"، فما كان في مقدرتك التحّمل وقد مُلِئَت عيناك أدمعاً، وبكيت وأخذتها بين أحضانك واعتراك ذلك الشعور الذي فقدته منذ ستة أعوامٍ مضت كحال أي سوري، الشعور بالنقاء والحبّ والامتنان وصفاء القلوب.. والمحاولات البائسة رغم الفقر والجوع والتهجير، فلم يكن منك إلا أن تستأذنها وتدعوها إلى الجلوس معك في ذلك المطعم الذي لطالما اعتدت الجلوس فيه في منطقة البرامكة أمام باب جامعة دمشق.. محاولةً لطيفةً منك لشكرها على ما أعادته لك من مشاعر نبيلة لم تعد تراها في دمشق.

بدأتم المسير معاً من جسر الرئيس أحد أشهر أماكن دمشق إلى وجهتكم وأنتم تتبادلون أطراف الحديث لحين وصولكم، وبعد ذلك الجدال الطويل معها أكملت ما كنت تشرحه لها وأجبت عن أسئلتها البسيطة، واتفقت معها على أن تجدها كل يوم في نفس المكان بعد أن تنهيَ تلك المحاضرات التي تلقيها، وودّعتها على أمل اللقاء في اليوم التالي.

تحضر في موعدك كما اعتدت ولكن للأسف لم تجدها.. وكأنها كانت مجردُ سرابٍ من مخيلتك لتعود بذاكرتك للماضي الذي كنت تتمناه أن يكون حاضراً، ثم تحاول أن تسأل عنها في بعض الأماكن المجاورة لمكانها وهنا تعلم أن اسمها (عُلا), وتسأل نفسك: كيف لم تسألها عن اسمها سابقاً؟ وللأسف اختفت بعد وجود العديد من الدوريات الشرطة المحلية التي كانت تسجن المهجرين بتهمة التسوّل.

تسوّل! لا أعتقد ذلك! أظنّ أنّنا نحن المتسوّلون، فهي لم تكن تريد سوى فرصة فقط لتحصّل شيئاً ولو بسيطاً من اسمها، لم تنسَ يوماً تلك العنين اللتين تنطقان بالأمل، وتلك الابتسامة التي تواجه مآسي الحرب والتهجير الداخلي، لم تنسَ أبداً ذلك التفاؤل العظيم الذي لديها ولكن اختفت عُلا واختفت معها معاني قسوة الحياة وعدم رحمة الحرب، واختفى معها المعنى الحقيقي للغربة داخل الوطن، الغربة عن مدرستها ومعلميها الذين أخبرتك عن مدى اشتياقها لهم، وبيتها المهدوم ولعبتها التي لم تستطع إنقاذها من تحت أنقاض منزلها، كيف لطفلٍ أن يتحمّل كلّ تلك المعاني المؤلمة وكلّ تلك الآمال؟

لم ننسكِ ولم ننسَ أبداً أنك تتذوّقين طعم الغربة داخل الوطن أكثر من الجميع، فكلّ ما كنتِ تحتاجينَهُ هو فرصة لتعيشي حلمك فقط لا غير.

الفصل السادس

بداية البصيرة

لم أجد ما يمكن اختزال معناه في هذا الفصـــل، ربما هو الخجل والاســتحياء مما آلت إليه الأحداث في دمشــق، أو ربما إنكارٌ للذات وجلدها مما سمعت وأسمع كلّ يوم.

مدينة الياســمين اليوم لم تعد تناضــل ضــد الإرهاب الذي حلّ لعنةً عليها.. وإنما اليوم دمشق تقاتل لتطردَ الوباءَ الذي سادَ أركانها ولكن كيف لها ذلك ولم ينطق أحد بكلمة؟ كيف ولم يحرّك أحدٌ ســاكناً؟ هل هذا الموضـــوع بهذه البســـاطة والاعتيادية التي يمكن أن يتقبلها مجتمعنا؟

في أوائل العام الســـابع من الحرب أو ما تدعى الأزمة ظهر وباءٌ لم يكن في الحســبان, وأُطلِق عليه عنوانٌ مبهمٌ ولا يدلّ في ظاهرهِ على مضـــمونه، والعجيب أنّ جميع الشـــباب اليوم يؤيّدونَ هذه الظاهرة الغريبة.

إنه: "الدعارة العلنية", أو ما يُســمّى بين طلاب الجامعات والشــباب بالمساكنة، أبهذه البساطة والسهولة يمكن لأي شابٍ وفتاةٍ العيش في منزلٍ واحدٍ وممارسة حياتهم اليومية معاً وكأن شيئاً لم يكن؟

هل وصـــلنا في الفكر والتقدم والازدهار العقلي لتقبّل أفكارٍ كهذه بما تحمله من مساوئ ومحاسن، جميعنا نرغب بأن تكون دمشق ملوّنة بروحِ الحياة والتقدّم ولكن لم نرغب يوماً بأن تكون في هذا الاتجاه أبداً.

أهي الحرب أم الحياة أم الانفتاح المفاجئ الذي طرأ بسبب الحرب!! لا أدري و لكنّ المخيف هو رؤيتنا لما يحدث في مراكز اللُقطاء في

الغرب الشرقي يتكرّر في دمشق! يتكرّر في مكانٍ ما كان يوماً يعتقد بذلك الفكر.. ويلفظه تماماً.

أحد أهم المشـــاكل التي واجهها المغتربون لدينا هو ما يحدث في مراكز الإيواء أو مخيمات اللجوء التي بات فيها كلّ شـــيء مباح، فيومياً نسمع قصصاً تقشعرّ لها الأبدان عن حالات خطف واغتصاب وتخالط أجناس وحتى التيتيم.

يا الله!! ما الذي يحدث أيمكن أن نكون هربنا من الحرب لنواجه ما هو أسوأ منها وأشدّ عنفاً؟ أيمكن لهذه القصص أن تحدث معنا؟

يمرّ العام وتنقضـــي به حياةٌ جديدةٌ في الاغتراب وألمه, وذكريات الوطن التي لا تنســى وأنواع الطعام الذي لم نعتد عليها ســابقاً، فكلّ مغتربٍ يشـــتاق لرغيف الخبز الكبير المعجون من الدقيق الفاخر الأصفر.

تمرّ الشهور ولم يتسنَّ لك نسيان ياسمين دمشق ولا ذكراها البسيطة، فمازلت تعيش على أمل لقياها وتحاول دائما الاتصال والاطمئنان من بعيد، فلم يعد للقضية أي ودٍّ ولا مأخذ لتعودَ من جديد.

لم تتخيل يوماً أن ما كنت خائفاً منه قد تسـمعه، وتتحطّم جميع الآمال والأحلام التي عشـــت بها وتنفســـتها بشـــكلٍ يومي بنفس الطريقة المتكرّرة.

إنه القدر.. قد وافق على حكمها, وامتثل لرغبتها، وأتى منصـــاعاً لآمالها, فلم تعد ياسـمين دمشـق التي تعلق قلبك بها مفعمة بالمشـاعر

تجاهك, وجاء شـــخص آخر حلَّ مكانك وألبســـها خاتماً ذهبياً وألغى حزنها على فراق ديانتها.

ارتدت ذلك الثوب الذي جعلها كأميرةٍ تفتن كلّ مَن يشـــاهدها ويتغنى بها، فيبدو لك أن صـــوت ضـــحكاتها الســـعيدة قد تخطت الحدود وتجاوزت المســـافات وأتت إلى مســـامعك لتفجّرَ بركاناً في داخلك يجعلك تعتصر ألماً فوق ألم غربتك العصيبة، فتقرّر الانتقام من ذاتك وتقرر أن يكون هذا اليوم هو يومك أيضـــاً حتى لو كان بعيداً عنها، فتجد تلك الفتاة أمامك وتعرض عليها الزواج متجاهلاً العادات والتقاليد والأعراف واختلاف الثقافات وكل ما قد يكون واقعياً، فتنجرف في سيلٍ أنت أبعد عنه مما يكون.. وتقرّ بارتباطك رسمياً.

هيأت نفسك تماماً واتخذت قرار نفيك بيديك في المكان الذي أنت قابع فيه.. وقلبك يقطر دماً ممّا يجري من حولك، فتقرر أن تحبَّ من جديد وأن تصـــبحَ أقوى، وأنه لا ضـــير أبداً أن يكون لك قلبان وأن حياتك السابقة قد انتهت بعدما تمّ انتهاكها.

تبدأ الأحاديثُ بينكما وتبدأ معها رحلةٌ تظنها جميلة ومســـتقرة، ولكن لم يكن ما تريد.. فأنت ترى الياسمينَ دائماً ولم تستطع حتى الاندماج والتقبل كما كنت مع ياسمين دمشق.

بدأت الوعود تنهمر منكما على أن تكونوا ســـعداء، وأن تكون هذه الحياة أجمل بكما وأن تتحدّوا الصـــعابَ ســـوياً، و لكن يبدو أنك انخدعت ونسيت أنك سورياً.

يُحدّد اليوم الموعود، وبكلامٍ مشـــدود منمّق تُلَفّ الورود، وتضـــع خاتمها في يدك وأنت تراه أبعد لك من بعد ياســـمين دمشـــق، فالنارُ أصـبحت نارين والقلب يتمزق ببطء.. مرسـوماً ببسـمةٍ مغفلةٍ وعقلٍ

تائه، تستقبل عروستك وتدمع عيناك للوهلة الأولى وتلتقط نفسك قبل أن تنطق اسم ياسمين دمشق، ثمّ تبدأ الأفراح بشكلٍ لم تعتد عليه، وترقص متغافلاً عما سيحدث، وتنهي يومك في تلك الكافتيريا في وقت متأخر من الليل، وتجلس منزوياً تمسح دموعك وتلتقط أنفاسك متعجباً مما بين يديك.

تمرّ الشهور تلو الشهور وتبقى مهمتك أن تسال عن أحوالها متناسياً أنك مع غيرها وأن قلبك لا يجب أن يُجزّأ، ولكن الحقيقة أنه لم يتجزأ.. فما زال مع ياسمين دمشق، تقنع نفسك بخبر تريد سماعه منذ زمن: (أن يكون هناك أمل بلقاء من جديد)، ولكن ها هي تعلن زفافها و تغيّر اسم عائلتها وتغير مكان إقامتها وحتى حياتها متناسيةً ما كان وكيف كان.

تمرُّ الأيام بصعوبة بالغة، فأنت اليوم في ظلّ مسؤوليةٍ كبيرةٍ، تبدأ بالتخطيط والتجربة والمحاولة بالنهوض، وقد خسرت عدداً كبيراً من أصدقائك بعد معرفتهم بخبر ارتباطك، ولكن هناك من يدفعك للخلف ويحبطك ويجعلك تحمل هماً أكبر مما أنت فيه.

تساقطت الوعود وبدأ الغيث ينقطع ولم تستطع الاندماج الكامل، فعادات دمشق الأصيلة ما زالت فيك لا تقبل أن تكون مذلولاً مسايراً.. فإنما أنت ربّ بيتٍ متحاملٍ وحاملٍ وقادر.

تنقطع سبل الكلام وطرق التواصل وكلّ ماتراهُ عيناك يذكرك بياسمين دمشق.. والمقارنة هي ما تجعلك تعاني بكل المعاني وتستصعب الأمر مع مرور الأيام.

تحاول النهوض والوقوف والنسيان ولكن قدرَك محكومٌ بالحنين ولو امتدّ لسنين، فتنتهي كل تلك الطرق إلى نقطةٍ سوداءَ آخرها التفضيل

والاختيار بين الشريك والأهل، وهنا يتحتّم عليك الاختيار، وقد يكون هذا أصـــعب قرار تتخذه، متجاهلاً كل ما قد أتاك وكل ما أنت فيه محاولاً النهوض والاحتفاظ ولكن قد قطعت جميع الســبل أمامك، فلم تعد تتقبلها ولا حتى تريد رؤيتها.. وبتّ تكره نفسـك معها، فتضـطر لتحملَ عواقبَ قرارٍ أنت اتخذته، وهنا تقرر الانفصـــال وتجد أن الصـمتَ أبلغ رسـالةٍ تعبّر بها عمّا تعانيه وتقاسـيه، فترسـم حياتك من جديد وهنا يعود الصوت القديم، ولكن كيف؟... كيف سيعود؟

بكلّ بساطةٍ تجد ياسمين دمشق من ضمن مقترحات أصدقائك، فتلفظ أنفاسك وكأنك شممت ترياق الحياة.. وتبادر بالكلام والسؤال بأسلوبٍ مباشـــر وتنتظم في المتابعة بشـــكلٍ معلن، ولكن هذه المرّة بشـــكل مختلف، فلم يعد لك الحق بالقول والبوح, ولم يعد لك الحق بالاهتمام, ولم يعد لك الحق حتى بالمراسلة.

ما هذا القدر! أهو قاسٍ إلى هذه الدرجة حتى يجعلك تعانق الموت مرتين؟ ألم يكفِ ما قاســيته من عناء الغربة؟ ألم يكفِ ما تعانيه من مشـــاكل في العمل؟ ألم يكفِ ما أنت فيه من ألم؟ ألم يكتفِ بكلّ ذلك الوجع ويريد المزيد.

نحن لســـنا محكومين بالغربة، نحن محكومون بالحنين والشـــوق والأنين، نحن محكومون بأن يكون هذا الحب من المســـتحيل، فلم يكتفِ القدر بعرقلته بالاختلاف الديني بل أضـــاف إليه الزواج والبعد وأطفال ليس لهم ذنب.. وحياة رجل يعيش بهناءٍ مع تلك الطفلة المدللة التي لطالما كنت تحلم بها، إنها أفعالٌ مباحةٌ للغربة والقدر والحرب في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

البعض ســـيرى أن هذا الحب هو خيانة، وأن هذه المرحلة لا يمكن إتمامها، ولكن ما أراده القدر أن تكون في وسـط هذا الألم، وأن تكون

محافظاً في كلامك جداً وألا يكون هناك أي كلام خارج إطار الكلام العادي جداً بين الأصدقاء فقط، لقد أصبحتَ ملزماً أن تلعبَ ضمن أحكام القدر الجديد، فأنت اليوم مجرد صديق لا أكثر.. مجرد مستمع لهموم مَن تحب وتعشق، فتبذلَ جهدك أن تكون متماسكاً دائماً رغم كل ما قد تعانيه.

يبدأ الحديث بمشاركة الهموم والأحداث المتفرّقة وتبدأ بمعرفة التفاصيل التي تعيشها، تقرأ وأنت تتألم من كل حرف مكتوب وأنت مجبر على عدم إبداء أي ردة فعل.. فأي واحدة قد تؤدي إلى الهلاك، تسمع تفاصيل المشاكل ويُطلَب رأيك فتجيب بعكس ما في قلبك حريصاً على الإصلاح بينهما، فتبكي بصمتٍ.. وقلبك يزداد جرحه يوماً بعد يوم.

يتوقف نبضُ قلبك لثوانٍ قليلةٍ بعد كلمة واحدة تعبّر عن الاشتياق فتصمت ولا تجيب، تحاول تجاهل الموضوع ليتوقف قلبك مرةً ثانيةً عند تلقيك اتصالاً تسمع فيه صوتها بعد غيابٍ دامَ فترةً طويلةً، تجيب قلقاً متمرداً على كل مافي خاطرك، ويكون الكلام بحذرٍ شديدٍ منك وارتياحٍ كبير منها، لتغلق الهاتف على جملةٍ قاتلةٍ: "جاء زوجي".

كلّ ما أنت فيه يقتلك، هل كل ذلك خيانة، أم أنه مجرّد صداقة؟

قد يبدو لك أنها صداقة ولكنها من أصعب الصداقات التي تملكها، وقد يبدو لها أنك ملجأٌ تفرّغ فيه مشاكلها وتكون أنت المرشد للإصلاح فيما بينهم، تمضي الأسابيع لتبدأ الأسئلة والخوض أكثر ضمن تفاصيل ما مررتَ به وما مرّتْ به، لتفهم من طيّات كلامها أنها تزوجته من أجل ماله وأنه فاحش الثراء ولكن لم يلتفت لك بال، وتشتد المشاكل لديها وتسمع منها قراراً بالانفصال، يقاتلك قلبك وعقلك بأن تؤيد قرارها ولكن تفكر بما ستعانيه من هذا القرار

فتجيبها بأن تتراجع وتحاول إقناعها بالعكس تماماً، وقلبك يزداد ألماً مع كلّ كلمةٍ تنطقها أو تكتبها.

تتغير الأحوال ونبقى نحن أســـراها، مجبرين على التعامل معها.. ولكن كلمةً واحدةً أو موقفاً واحداً قادرٌ على أن يغيّر كلّ شـــيء، فلم تتوقّع أن يطلب منك ما هو أبعد من الخيال وما هو أقرب الى الوهم، أيمكن أن يكون الزمن قـد تغير؟ أيمكن أن تكون أنـت فقط من لم تتغير؟ أم أنك كنت مغفّلاً معمياً بالحب الذي يرى كل شيء جيد؟

من هنا تبدأ البصـيرة والبعد في النظر أكثر والتعلم أكثر، أنت لم تكن أعمى البصـــر.. بل أعمى البصـــيرة، وكان لا بدّ من بدءِ البصـــيرة والنظر عن قرب أكثر، فإما أن تكون بصـــيراً مســـتنيراً أو أعمىً مستغفلاً.

الفصل السابع

قدر

أصـعب ما قد يصـيب أي إنسـانٍ أن يكون داخله ناراً ملتهبةً، فيحرق بها مَن حوله أو كلّ مَن يقترب منه دون إرادته، والأصـــعب من ذلك هو محاولاته التي لا جدوى منها، وظنونه بأنه يحرق نفسه فقط، فكلّ يومٍ يمرّ من الممكن أن يكون هناك ضحايا جدد وهو لا يدري.. ولكن مـاذا يمكن أن يفعل إذا كـان قدره أن يكون ظـالمـاً حتى لو لم يتعمد ذلك.

لطالما تسـاءلت كثيراً حول الظلم، هل يمكن للظلم أن يتغيّر مفهومه؟ هل من الممكن أن يكون الظـالم بريئاً من إجرامه في حق نفســـه؟ لم أستطع أن أجد إجابةً لهذا السؤال، لأن الظالم لا يشعر بنفسه أنّه ظالمٌ, وقد يظن نفســـه مظلوماً ولكن ما أنا متأكد منه أن القدر قد يتدخل ويغير ما لم يستطع أحد تغييره.

أجلس في ذلك المقهى الكائن في تلك البلاد العربية وأنظر في عيون الجالسين، وقد أكون أستمع لمقتطفاتٍ من أحاديثهم، لا أدري إن كان يحق لي اختراق خصـوصـيتهم ولكنني متأكد أنني قد اختنقت من تلك النظرات وتلك العيون حولي، فكلّ واحدة تكمن خلفها قصـــة كبيرة ورواية قد تكون خيالية.

لقد تســـاءلت كثيراً حول رواياتهم فالرجل الجالس أمامي يبدو عليه الثراء ولكن عيونه لم تكن تنم عن الراحة.. حتى أن ضـــحكته الخانقة وهو يتحدث عبر الهاتف تنم عن إضـــرابٍ كبيرٍ و قلق، يقبع بجانبه مجموعةٌ من الشباب لم تتجاوز أعمارهم الثامنة عشر، كلّ واحد فيهم يتحدث عن حاله، ضـــحكاتهم الغريبة لا تشـــير أنهم ســـعداء مما يعايشون، وأكثر ما لفت انتباهي بينهم ذلك الشاب الذي قرر أن يلعب رغم أنه وسـط أصـدقائه, عيناه لم تكن تشـتكي ولكن كانت تعبّر عن اليأس وفقدان الأمل أو الهدف أو حتى الاختيار، ومن الناحية الأخرى يوجد طاولتان.. في كلّ واحدةٍ منها شـابان، وجميعهم منشـغلون جداً في تلك المباراة التي أمامهم، ومن المرجّح أنهم يتابعونها ليشـــغلوا

أنفســـهم عن همومهم، فبرغم ما يبدو عليهم من الثراء ولكن على ما يبـدو إنهم عـاطلون عن العمـل، وإن ثراءهم ذلـك من أهلهم، تلـك النظرات التي يعلوهـا ألمٌ كبيرٌ ووجعٌ حقيقيٌ تخفيـه عيونٌ دامعـة وقلوبٌ صـــامتةٌ وُئِدَت وهي ما تزال طفلة، ما أثار فضـــولي حقاً هو ذلك النادل الذي يتعامل بكلّ لطفٍ محاولاً الابتسام، قصصٌ كثيرةٌ قد تخرج من مجرّد النظر إلى تلك العيون.. فتشـعر بمدى اليأس والتعب والاختناق الحقيقي.

إن كان القدر هو الذي يغيّر موازين الظلم, فهل يتغير القدر؟

قد لا نســتطيع تغيير القدر ولكننا بالطبع نســتطيع أن نتحكّمَ بنتائجه، فجميعنا محكومٌ بقدره ومظلومٌ به, ولكن كم نحن مظلومون!

إنّ نظرية الظالم والمظلوم لم أتفق معها أبداً فجميعنا مظلوم وظالم، والفرق بيننا في قدرة التحمل فقط، فهناك من قرّر أن يكون ظالماً بشكل أشدّ معتقداً أنه يدافع عن نفسه، والبعض الأخر قرّر أن يكون ظالماً بســـيطاً يكفّر عن ذنبه بما يأخذه من ظلم، قد لا يتفق معي البعض ولكن كلّ واحد منا له دفتر ذكريات يحكمه بظلمه وظلامه.

إننا نعيش في كونٍ مليءٍ بالظلام متعايشين فيه باعتبارنا أصدقاء له وغالباً ما نلقي لومنا عليه، ولكن لماذا.. لماذا تلقي اللوم على الظلام؟ مِن المحتمل لأنه قويٌ وأكثرُ وجوداً ودواماً، حتى في وضـــح النهار يظلّ متواجداً في ظلالنا التي تعكسُ شـــيئاً من ظلامنا.. لذلك لا تلم الظلام، أنت فقط لم توقد النّور وقرّرت الظلمة بمحض إرادتك.

إن أوقدتَ النّور عليك أن تعلم أنك قد تكون بين أمرين: إما الحقيقة وإما الوهم.. وأحلاهما مُرّ، ولك أن تقرر بينهما، فإمّا أن تواجه قدرك وتحاول أن تكســب جولتك مهما كانت النتائج والأقدار المرســومة،

وما قد يجعلك تتّخذ قراراً كهذا إما صـــدمةٌ أو موقفٌ يجعلك تشـــعر بالغرابة أو قراءتك للأحداث محاولاً اتخاذَ قرارٍ لا تندم عليه في وقتٍ لاحق.

ذلك الطلب الغريب جعلك تراجع دفتر ذكرياتك ومحطات حياتك الصعبة غير مبالي لحجم الألم الذي تشعر به من مرارة هذه الذكريات وسـقطاتك في حياتك لتبدأ تفكّر جلياً، وتتسـلّلُ الشـكوك التي لم تكن يوماً لديك تجاه الياســمين وتأخذك برائحةِ ياســمين غريبة لا تريد تصديقها.

وهنا تبدأ حربٌ جديدةٌ من نوعٍ مختلف، يشــعلُ مرارةَ الغربةِ التي لم تنطفئ، تحاول التأقلم مع كل ما يجري من حولك، القرار الصـــحيح أن تقتل ما بقي منك وتغترب، ذلك الشـــعور الذي لم يعد غريباً عنك أبداً، وهذا ما لا تستطيع فعله رغم كل محاولاتك، ويبقى صوت قلبك يقتل جميع شكوكك الوليدة من استنتاجاتك!

إنّ معايشـة الألم شـعورٌ صـعبٌ، تضـع نفسك مكان ذلك الرجل فتكره مـا بك من هموم وتنكر تلك العلاقة التي لا حقيقة فيها، و لا يمكن معرفه أســرارها، ويبقى ذلك القلبُ محكوماً لمن يحبه ولكن أســيراً منغلقاً منعزلاً لا ينطق ولا يصدر صوتاً بعد كلّ ما عاناه من غربة.

تلك القصـــص التي تراها من حولك تجعلك تتقنُ إلحادك في الحب ومعاناته، وتجعلك بعيداً عن كل ما يتعلق به، فما بال تلك المرأة التي أحبّت رجلاً لا يأبه بها، أو أنه يغذّي غروره عليها وهي ترخّص من نفسها لتصل لأمواله التي يدعيها.

تتعقّد الأمور أكثر فذلك الرجل الذي حاولت مساعدته يظنّ أنه يقوم بالمثل!! فقام بإغواء فتاةٍ بك، ولكن كان الوقت قد تأخّر كثيراً وفات الأوان ولم يعد هناك مجال للعودة، وإنك قد سئمت من كل ما يجري من حولك، فكلّ ما تفكر به هو إشعال النور، فلم تعد ترى نفسك في طيّات ذلك الظلام.. وهنا تبدأ رحلة الصدمة الحقيقية، صدمةٌ تجعلك لا تؤمن بأحد ولا تثق بأحد حتى بنفسك.

تأخذ أنفاسك وتقرّر بإصرارٍ الدخول في اللعبة، وتقرر أن تكون لاعباً لا حجر شطرنج يتم تحريكك، فتكسر الأغلال وتخرج من تلك الظلمة الدامية التي جعلتك أعمى.

تبدأ البحثَ والتعمقَ في تفاصيل كلّ شيء، فتجد أنك كنت ظالماً بحجم ظلمهم لك، لقد جعلوك ظالماً.. يتملّكك الغضب وتقرّر تغيير قدرك الذي وضعك في هذا المكان، في بعض الأوقات تكون مجبراً أن تبعد بعض الذين تحبهم عن حياتك لكي تستمرّ في الحياة، فلم يعد لديك القدرة على تحمّل كل تلك الأكاذيب، كالصداقة التي حكمتها الغيرة والحسد وجعلتهم يحاولون بشتّى الطرق إفشالك وتدميرك، وأولئك الذين تقرّبوا منك لتحقيق مصالحهم وغاياتهم الشخصية، وحاولوا جعلك أداةً في أيديهم محاولين استغلالك بكل الطرق المتاحة لهم.

كل تلك القيود لم تكن موجودةً في الوطن، كل تلك الإهانات لم تكن في الوطن، كل تلك الأوجاع لم تكن في الوطن، كل تلك الأكاذيب لم تكن في الوطن، هل يمكن أن يكون هذا الوطن الذي يعيّروك به أفضل منهم، أم أنك في الوطن لم تكن تعرف له قيمةً أو لم تجد له معنىً؟

وصل الطريق مع ذلك الياسمين إلى النهاية، وتقرّر أن تثبّتَ مايجول في خـاطرك، وتقرّر الوثوق بـالواقع بعيـداً عمـا يجول في نوايـا الياسمين، فهذا الحب بدأ يقتلك ببطء وبدأ يجعلك ظالماً، فبرغم كل ما تعرضـت له في ارتباطك قرّرت أن تعلن بُعدك بصـمتٍ كما حصـل معك تماماً، وعلى الرغم من اعترافك بذلك فسوف تبقى ظالماً.

تبدأ الخســـارات بالتتالي وتبدأ بالعودة لما كنت عليه من قبل، وحيداً بعيداً منفياً ولكنك لم تكن تسـتطيع إدراج الياسـمين ضـمن ذلك برغم كل ما بك، ولكن كيف سـتبتعد فلا تجد لذلك سـبيلاً، وإن ما بدرَ منك أصبح في طيّات الماضي وهنا تأتي مرحلة الانتظار.

الانتظار.. هو المرحلة الأكثر صـــعوبة والأكثر ألماً لأنها تفســـح لك المجال لكي تفكر بكل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة، وتجعلك ترســـم خيالاتٍ كبيرةً وقصـــصـــاً كثيرةً، وكلّ احتمالٍ يجعلك خيالك تعيش ألمه أو فرحه، الانتظار قد يكون مجموعةً من المشاعر التي لا يمكن ضبطها ولا التحكم فيها, وقد تؤدي بك إلى الهوس أو الجنون.

إن الانتظار هو أخطر ما قد يواجهك، فالانتظار لا يدعك ترى السماء بتلك النجوم.. بل تراها بتلك الأحداث وتلك الأحاديث، ويجعلك تندم وتفرح وتحزن وتشـــكر في وقت واحد، يجعلك شـــارداً لا تفكر في شيء إلا ما تنتظره فقط.

ولكن هذه المرة لم تنتظر كثيراً إلى أن جاءك ذلك الرد الذي جعلك تعلم حقيقه كلّ شـيء، ولكن هل سـتسـتطيع مقاومة هذه الحقيقة؟ هل ستتقبلها؟ هل ستتعايش مع ذلك السراب الجميل الذي كنت فيه؟

مواجهة الحقيقة أصـعب من الحقيقة نفسـها، ولكن في بعض الأحيان تكون مجبراً على المواجهة وتقبل واقعك، فتقبل الحقيقة قد يجعلك

تتعلم أكثر وأكثر، ولكن هذه المرة بصـــمت فكلّما تقدّمت في العمر تعلّمت بعمقٍ أكبر وصمتٍ أكثر.

ها هو الياســـمين يختفي من جديد بنفس الطريقة وبنفس الأســـلوب القديم، ولكن هذه المرة قررت عدم البحث عنه، ولم تعد تجد راحة الجمال لديه، فلقد ضعت بين بضع كلماتٍ جعلتك تشعر بحبه الذي لم تستطيع أن تجد بديلاً عنه.

ها أنت الآن تعيش شـــعور المظلوم وتفهمه جيداً، ولكن ماذا لو كان هناك أسبابٌ أخرى جلعت الياسمين تختفي من جديد؟ أيمكن أن تكون اتخذت قراراً بشأن الحفاظ على زواجها وكان القدر سيئاً بينكما؟

ها أنت أيضا تعيش شعور الظالم وتفهمه جيداً، و تبقى محكوماً بدفتر ذكرياتك ظالماً ومظلوماً متعايشـــاً مع ذلك الوضـــع، ملحداً بكل تلك المشـــاعر وكل تلك الروايات التي تجعل الحب في أعيننا عظيماً, وتراه أكبر مصـــدرٍ للألم يشـــعر به الإنســـان، فتقرّر العزلة والتوقف والانتظام بالإلحاد.. وتجعل غربتك عنه أبديةً متقناً دور الألم الذي نجم عنه.

تقرّر النهوض بعد كلّ تلك الأزمات، وتحاول العيش بكل ما بقي منك، معتزلاً ما قد يشوش صفاءك، فأنت لم تعد تستطيع رؤية أحدٍ آخر يحترق بنار قلبك وشوقك الذي بقي لدمشق وياسمينه الأبيض الملطخ بالدماء الحمراء، وأصبحت تعيش على ذكريات وطن.

الفصل الثامن

تجرد

لم يتخيّل أياً منا أنه سيشعر بهذا التناقض، ولم نحسب يوماً أننا سنصل إلى ما نعيشه الآن، لقد بقينا طوال عمرنا خائفين من أن نعيش واقعاً يشابه واقعنا، لم يكن بمقدور مخيلتنا البسيطة أن ترسم لنا مثل هذه الأوقات ومثل هذه الترهات التي نعيشها منذ ثمانية أعوام أو أكثر، فمازلنا نترقّبُ قدرنا ونحاول التعايش مع الذي يحدث في حالة صدامٍ دائمٍ، ومفاجأةٍ لفاجعةٍ كبيرةٍ.

لا يمكن أبداً نسيان الوطن مهما حاولنا ذلك، فأصغر موقف قد نمرُّ به سيجعل الذاكرة تعود بشكل تلقائي إلى وطننا وماضينا، فلا تعلم هل تقول ما تشعر به أم تصمت؟ وهنا تجد نوعاً جديداً من الألم.. لأن أكثر شيئين يتعبان الإنسان كثيراً هما: "التكلم عندما يجب عليه الصمت والصمت عندما يجب عليه التكلم".

لا تعلم ما الذي يجب أن تفعله ولكن عليك النهوض والمتابعة، فيجب عليك ألا تنسى أنك ابن الياسمين.. ابن أقدم عاصمةٍ في التاريخ، انظر إلى نجاحات أبناء خريطتنا رغم غربتهم، لقد أثبتنا للعالم أجمع أننا نولد من رحم النار كما العنقاء ونثبت أعمالنا كما الأساطير.

لا يمكن الإنكار أن هناك من أضره الانفتاح على العالم وجعله بعيداً عن رؤية أخلاقنا السورية المؤصلة منذ أربعة آلاف عام, ولا يمكن الإنكار أيضاً أنّ ما نتعرّض له من بعض أشباه البشر وكمّ الأذى النفسي والمعنوي والجسدي الذي نعانيه كل يوم.

قد تكون كل تلك الأحداث التي مرّت على كل واحد منا بمثابة اختبارٍ لنا، واختبارٍ لأصولنا وتأثير تعارفنا على العالم الخارجي بشكلٍ أفضل، ومعرفة أن العالم لم يكن ورديا كما جعلنا أهلنا نتخيله ونعيشه، قد تكون مجرّد اختبارات انتقالية لما هو أكبر وأعمق وأكثر

ألماً، وقد تكون رحلة صـــغيرة تُعلمنا أننا لم نكن يوماً أبرياء وأنّ كلّ واحد منّا له آثامه الخاصة.

كل تلك المعاني التي كنّا نكتب عنها ونصورها بتنا اليوم نعيشها بكلّ تفاصـيلها لنرسـم تفاصـيل ومعانٍ جديدة لم نكن يوماً نعلم بوجودها، فذلك المزيج ما بين الغربة والحرب والتهجير خلق منّا أشـــخاصـــاً جديدةً، وخلق منا آلاتٍ تعيش بإصرار على أن تعود كما كانت سابقاً، ولكن عندما نعود هل سنكون كما كنّا؟

تلك الآثام ما زالت تزيد يوماً بعد يوم, فهناك من لم يتعلّم أنّ هذه الأحداث وهذا الفقدان قد يكون عقاباً على أفعالنا، بل يقنع نفســـه بأنه بعيد عنه ويكمل في آثامه وآلامه الخاصة.

كثيراً ما تساءلت حول الظالمين هل لديهم شعور بالألم؟ هل لديهم ما يجعلهم يندمون ويتألمون؟ هل لديهم عثرات؟

في الحقيقة الإجابة تجعلنا نبرّر آثامهم وآثامنا و نبرّر كل أفعالنا، ويجعلنا نحلّل كلّ ذنب اقترفناه، ولو قارنا أنفســـنا اليوم بما كنّا عليه سابقاً فماذا سنرى؟ هل تغيّرنا حقاً أم كُشِف السّتار عنّا؟

أكثر من عانى من هذه الحرب وهذه الفوضـــى هم جيل التســـعينات الذين عاشوا ما بين العصرين وعاشوا الأزمة بكلّ تفاصيلها وحاولوا الانتقال بسلام، فتلك التناقضات لم يكونوا جاهزين لتقبلها، فبعضهم عاش نصف طفولة والبعض الآخر عندما بدأ في بناء مستقبله تدمر الوطن.

الوطن.. تلك الكلمة المفصّلة من ثلاثة حروف.. لا تجد لها إلا ذكريات كانت في الماضي ومازلت تعيش على ذكراها حتى الآن، ذكرى تلك الشوارع والضحكات والسهرات والآمال.. والقهوة الصباحية على أنغام فيروز ورائحة الياسمين وعبق دمشق، ذكرياتٌ حُكِم عليها بالتغيّر لتصبحَ شوارعاً مهدمةً وصرخاتٍ مؤلمةً وخوفاً في العتمة ويأساً متفشياً وقهوةً لم يعد لها طعمٌ ولا رائحة, ودماً وموتاً منتشراً في الأرجاء.

جميعنا بكل اختلافاتنا الدينية والسياسية اتفقنا في النهاية على أمرٍ واحدٍ وكلمةٍ واحدةٍ وهي: "الوطن"، فقدناها ونحاول البحث عن بديلٍ لها ومأساتنا أننا لن نجد لها بديلاً مهما كان ظاهره.

لقد تبدّلت الظروف بقناعاتٍ لم نكن يوماً نعلم عنها شيئاً، لتدمّر كل ما نملك وتضع ذلك المستقبل في طي النسيان، فتغيرنا جميعاً وبات الحزن هو الشيء الوحيد المتفق عليه في ملامحنا، فكلٌّ منا فقدَ شخصاً عزيزاً وتغرّب له شخصٌ آخر، وذاق مرارة الحرب بطريقته الخاصة، حتى أولئك الظالمين منا عانوا معاناتهم وأطلقوا ويلاتهم علينا جميعاً.

ثماني سنواتٍ من الحرب كانت كفيلةً بجعلنا أمواتاً على قيد الحياة، لدرجة أننا لم نعد قادرين على العودة ولم يعد بإمكاننا التأقلم على بلادنا من جديد، فحُكمنا بألمٍ لا مفرّ منه كزوبعةٍ لا منأى منها طالت الجميع، فلا تكون سعيداً في وطنك مفتقد غربتك.. ولا سعيداً في غربتك مفتقداً وطنك.

علينا أن نكون صريحين: إن ما حدث كان من صنع أيدينا، وإن ما نعانيه من ظلمٍ في غربتنا بسبب تنازلنا عن أهم ما كنّا نملك من

كرامتنا.. فسمحنا لغيرنا باستعبادنا واسترقاقنا وحتى إهانتنا متسائلين: ألم نكن محســـنين لهم يوماً ما؟ فنتعلم أهم دروســـنا أن لا أحد يحفظ المعروف ولا أحد يقدّم العون، وإن عاداتنا كانت لنا فقط، وإننا كنا في حياةٍ ورديةٍ نعيش بتآخٍ ومشـــاعرَ نبيلةٍ، وكنّا دوماً نصـــراً لكلّ مظلومٍ ولكنهم بظلمهم وقســـوتهم جعلوا منا أُناســـاً متبلدي المشـــاعر وظالمين.

ننتظر النهاية كلّ يومٍ بفارغ الصـــبر, ونعيش على أمل أن النهاية ســـتكون في الغد ســـعيدة وســـيعلنون رحيل أزمتنا وأننا عائدون إلى أحضان أرضنا.. ولكن بتجرّد نوقن أنها كانت نهاية البداية لا غير.

الفصل التاسع

نهاية البداية

قد أكون وصـــلت إلى نهاية هذا الكتاب ولم أُلِمَّ إلا ببعض الجوانب التي نعايشها كمغتربين، مجبرين على التأقلم مع الألم والوجع والحياة المليئة بالأسرار والخوف والتي لم تكن يوماً كما نعتقد.

العيش مع الأسرار أمرٌ صعبٌ، فكلٌ منا لديه أسراره وآثامه وأفكاره الخاصـــة التي لم يَبُح بها أبداً، وربما لم يســتطع الاعتراف بها حتى أمام نفســـه، فأياً كنت وأياً من تكون تقرأ هذا الكتاب فأنت تعلم جيداً أنه قد لامسَ ولو جزءاً بســيطاً من الحقيقة المرّة التي لم تتجرّأ على الاطلاع عليها أو البوح بها.

أياً تكون.. سواءٌ كنتَ سوريّاً أم مصريّاً أم لبنانيّاً أم عربيّاً بشكلٍ عام، فأنت لم تقرأ إلا القليل مما عايشـــناه من الاغتراب والحرب والحب والندم، ومحاولاتنا المريرة للعيش بكرامة، والقتال للاســـتمرار في العيش ضمن حياةٍ لم يستطع أحد فهمها، الحياة فعلاً لم تكن كما نعتقد وليست بكل تلك البساطة, وفي كلّ يومٍ نعيشه لا بد لنا من تعلم درسٍ جديدٍ.

لم يكن ذلك الشاب الذي صعد على متنِ تلك الطائرة يختلف عن ذلك الذي صعد على متن السفينة أو القارب الصغير، فكلهم كانوا يعلمون في قرارة نفســهم أنهم ذاهبون بدون عودة، وأن الألم القادم ليس بتلك البســاطة، وأن ما عايشــوه جعلهم مشــوهين داخلياً لا يقاومون وبلا أهداف, والباعث على نجاتهم إنما هو دماء العنقاء الســـورية التي تحمل بداخلها جينات المقاومة والمحاربة وعدم معرفة المستحيل.

أن تكون مغترباً يعني أن تكون مشاعرك مختلطة, وأن تكون سورياً يعني أن تكون مشوّه المشاعر فلا تستطيع أن تكون ضمن الحب، ولا تستطيع أن تكون ضمن الوطن، بل يجب أن تكون صلباً متجمداً لا

تستطيع حتى البوح بأسرارك، ولا حتى التوبة من ذلك الإثم العظيم الذي تربّيت عليه، فلا تستطيع التخلي عن حب تلك الأرض التي نشأت على جنباتها, ولا تلك الدماء التي تجري في عروقك, ولا تلك المشاعر التي تربطك بالياسمين الدمشقي الذي بات مرصعاً بدماء عشاقها.

الحرب والحب كلمتان متقاربتان، فبرغم اختلاف معانيهما إلا أن الفرق بينهما هو حرفٌ واحد فقط.. حرفٌ لديه القدرة على التدمير والقتل وإنهاء حياة أناسٍ ليس لها أي ذنب إلا أنها تعلقت بحبٍّ وعطفٍ وصدق، ذنبها فقط هو العصيان والتّمرّد على الحرب بالحب، ذلك الحرف الذي يقود كل ما فينا إلى النهاية أو إنها قد تكون البداية.

ما بين الاغتراب والعمل.. والحب والعاطفة.. والحرب والندم, تجد لك رفيقاً واحداً في مسيرتك وهو الخذلان، فقد تكون خاذلاً أو مخذولاً وكلاهما أصعب من أن تواجه هذه المشاعر بقلبٍ متعبٍ ومرهق من قسوة ما عايشته، وقسوة ما اتخذته من قرارات، فلا قرارك في البقاء تستطيع تحمله ولا قرارك بالاغتراب تستطيع تحمّل مصائبه، فالكثير من السوريين الآن يعانون بكافة الأشكال، فالوطن لم يعد كما عهدناه لقد غيرته الحرب وانتهى منه الحب، فالوطن ليس فقط تلك الأراضي والبنيان والشوارع التي تحمل تلك الذكريات السعيدة بل أيضاً هو مشاعر، تلك المشاعر قد غيرتها السنين العجاف التي أصابت ذلك الوطن، فقرّر بعض أبنائها الخروج للبحث عنها ولكنا جميعنا صُدمنا بأنها ليست موجودة إلا في ذلك الوطن المغدور, ولم يعد لتلك المشاعر أي وجود.

العلاقات التي تجمعنا ببعضنا قد تكون هي سبب وجودنا أو حتى عذابنا, فعذاب الحب الضائع أو الخذلان الشائع ما بين العشاق قد لا

يساوي مأساة وعذاب الغربة عن الوطن، وحب الوطن لا يقارن بأي حب آخر.

لحظةً بلحظة قد تصـــل.. إلا أن الحب لا مكان له بين هذه القلوب المشوهة، والإنسانية ليست موجودة إلا في كتبنا وإعلامنا، محاولين إعادتها بحديثنا وكتابتنا عنها، مجاهدين أنفسنا ألا نخسرها، فأنا لستُ موقناً بعودتها كما أني لســتُ موقناً بعودتنا من اغترابنا.. ولكنني انتظر ذلك اليوم الموعود الذي ســيجمعنا بوطننا ومشــاعرنا الغائبة وإنسانيتنا المفقودة وعودة حياتنا السابقة واحترامنا بشكل كامل.

إنّ الحرب والتطرف جعلونا أمام العالم إرهابيين.. ومتطرفين عديمي المشــاعر، فاليوم نُذكَر في أقلامهم وأفلامهم وبلدانهم على أننا خطر وتهديد على الآخرين، ولكن مالم يعرفه العالم أجمع أننا كنّا وســنبقى من جعل للحب اسماً وللإنسانية علماً وللحضارة قسماً، فبرغم جميع أقوالهم وإهاناتهم لنا لا يســتطيعون إنكار تأثيرنا على اقتصــادهم ومشاعرهم, فزرعنا الحب والود, ونشرنا ثقافتنا بينهم، ونحن العنقاء التي نثرت غبار نارها.. وأطلقت العنان بينهم لتلون حياتهم.

تلك القصــص والآثام والأحزان التي أســمعها كل يوم من أولئك الأشــخاص - الذين جعلوني مقرباً منهم - جعلتني أوقنُ أن هذه الحياة ليســت بتلك الطهارة والعفة التي كانت في الوطن.. وأن الحرب الحقيقية هي حربنا على أنفسنا، فبرغم كل ما أَلَمَّ بنا كسوريين إلا أننا ما زلنا نستمع ونتألم على أحزان غيرنا من الشعوب، وذلك يجعلني أوقن أنه ما زال هناك فرصةٌ لعودتنا كما كنّا يوماً ما.

قد نكون وصــلنا إلى الختام وهناك الكثير ممّا لم يذكر ولم يُقَل، ولن نستطيع البوح فيه بسبب أذىً قد طالنا، ولكن ستبقى تلك الذكريات

ورائحة الياســـمين تربطنا بالحياة وتربطنا بأمل العودة وفتح تلك الصناديق التي تحمل مفاتيح أبوابنا.

قد يلقي عليك هذا الكتاب بمشاعر الألم والحزن، وقد يجعل السوريين يتذكرون بعضـــا من مآســـيهم، ولكن هذا الكتاب قد نقل بعضـــاً من القصـص التي عايشـها بعض السـوريين وحتى التي عايشـها الكاتب، ولكنـه يجعلك تفكر ملياً قبل الحكم على المغترب.. وقبل الحكم على ما مرّ به من آثامٍ قد غُصِب عليها دون إرادة.

هذا الكتاب هو رســـالتي للعالم بأننا لســـنا كما نبدو عليه ولســـنا كما ندعي، وأننا نحمل بداخلنا وطناً وألماً وحباً، وبرغم كلّ ما نظهره من إنجـازاتٍ وتقدمٍ وازدهارٍ.. فقد تكون أنتَ خيبـةً لشـــخصٍ مـا وأملاً لشـــخصٍ وحلماً لشـــخصٍ آخر، ولكن الأكيد إنك لم تكن يوماً كما تعتقد.. فمازلنا لا نســـتيقظ على وطن, ولا ننام على وطن, ونأمل أن نعيشَ في الوطن.

لمحة عن الكاتب

سوري مصري الجنسية من مواليد سورية يحمل شهادة بكالوريوس اختصاصية في مجال إدارة الموارد البشرية من الجامعة السورية الخاصة 2016 .
مختص في ادارة الموارد البشرية
اعلامي تنموي و صحفي في عدد من الجرائد الإلكترونيه و المطبوعه في مصر
معد و مقدم برامج تنموية ثقافية تلفزيونية و اذاعية في سورية و مصر
مؤسس و مستشار في مؤسسة كن مبدعاً التنموية التطوعية
مدرب تطوير موارد بشرية مستقل يدرب في ريادة الأعمال و المهارات العملية و بعض أقسام إدارة الموارد البشرية سابقاً.
متحدث سوري رسمي في المبادرة الأممية لإطلاق اليوم العالمي للمسؤولية المجتمعية 25 سبتمبر ، 2016 .
أحد المتحدثين في المؤتمر السوري للتسويق 2016.
حائز على العديد من الشهادات التكريمية في مجالات الإعلام والتدريب والتطوع.
أحد الفائزين في برنامج دمج التكنولوجيا في التعليم ضمن الأمانة السورية للتنمية و كان من المكرمين من السيدة أسماء الأسد في عام 2008.
ريادي أعمال و مشارك في العديد من الأعمال التطوعية و المشاريع الريادية.

انجازات متواضعة :
أحد الفائزين في برنامج دمج التكنولوجيا في التعليم ضمن الأمانة السورية للتنمية و كان من المكرمين من السيدة أسماء الأسد في عام 2008 .
شهادات شكر و تقدير من جمعية ادارة الموارد البشرية سورية لأعوام 2015 - 2016 -2017
شهادات شكر و تقدير من الجامعة السورية الخاصة لأعوام 2014 -2015 - 2016
شهادة شكر و تقدير تدريبية من مركز تأهيل و تدريب المشروعات الصغير و المتوسطة في دمشق لعام 2016
شهادة شكر و تقدير من معرض سيرفكس للاستثمار لعام 2016
شهادات شكر و تقدير تدريبية من الامانة السورية للتنمية لأعوام 2016 -2017
شهادة التقدير العالي من المركز المصري للتدريب لعام 2017
شهادة شكر و تقدير من جريدة رصد الوطن المصرية لعام 2017
شهادة شكر و تقدير من جريدة رصد الوطن المصرية لعام 2018
درع التكريم الخاص من مؤسسة صحيح الرسالة في الاسكندرية لعام 2018
شهادة شكر و تقدير من جريدة رصد الوطن المصرية لعام 2019
شهادة شكر و تقدير من مؤسسة صحيح الرسالة في القاهرة لعام 2019

عامان على الغربة

أحمد شامي

لم نختر أن نكون غرباء و لكن اخترنا العيش على ذكرى الأحباء إن اصعب ما قد تواجهه في هذه الحياة هو العيش بحياتين مختلفتين و خيارين أحلاهما مرّ و لكنك مجبر على الخيارات ما بين الحياة و ما بين الواقع.

لست بكاتب ولا شاعر و لكني أكتب لكل مغترب و لكل عاشق متفرق أحاول بهذا الكتاب أن انقل صوره بنظره قد تكون ثقيلة لبعض المغتربين و أحاول جعل هذا الكتاب إطلاله و إعتراض على قضايا قد تكون مهملة لأناقشها و أنتقدها عن طريق قصه عشق في زمن الحرب و الاغتراب .

قد يلامس هذا الكتاب و هذه القصة البعض و قد تكون فيها بعض الأحداث التي عايشتها و لكن ما أنا متاكد منه هو أنني أكتب وجع جيل عايش ذنب لم يكن ذنبه .

قد يكون في قلبي بعض الأماني أن تصل هذه الكلمات لصاحبها و أن يكون وصفي له متقن. و لكن تبقى النهاية هي الحكم .

لم نختر الاغتراب و لكنّا إخترنا ما نحن به في الاغتراب إما أن نكون ملهمين أو أن نكون سراب .

الكاتب : أحمد شامي

الكاتب : أحمد شامي

استشاري ادراة موارد بشرية و اعلامي تنموي و مقدم برامج و ريادي أعمال مختص في إدارة الموارد البشرية و مدرب تطوير موارد بشرية مستقل .

حائز على العديد من الشهادات التكريمية و التخصصية في مجال التطوع و الاعلام و ادار الموارد البشرية في سورية و مصر .

Ahmed.Shami.Official @AhmadAboShami DesignerAhmadShami

التدقيق اللغوي : ولاء السيد شماع

الأداء الصوتي للكتاب : أحمد شامي ، ميرنا محمد

جميع الحقوق الفكرية محفوظة للكاتب ٢٠١٩

#عامان_على_الغربة

9 789776 727557